عندما يكتمل القمر

الكتاب: عندما يكتمل القمر
المؤلف: ضياء الدين الهمامي
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
تدقيق لغوي: عاشور عطا
رقم الإيداع: 2019/27184
الترقيم الدولي: 978-977-778-198-5

20 عمارات منتصر – الهرم - الجيزة
ت: 02-338560372
Noon_publishing@yahoo.com
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

ضياء الدين الهمامي

عندما يكتمل القمر

رواية

للنشر
والتوزيع

لست الوحيدة التي حدث لها ذلك. كل الناس تخيب آمالهم، تذهب أمنياتهم إلى اللا شيء بعدما يفعلوا لها كل شيء.

كل ما عشته في هذه الحياة تغير في أسرع من تقليب الكف، لم يتبق من أحلامي الطفولية من سرور.. غير بصيص خافت يلمع على فترات قليلة.

أنا وحيدة.. وحيدة جداً، ليست وحدتي في الأهل ولا الأصدقاء ولا المعارف، ولكنها وحدة أبعد وأقسى، انعزال من ساحة مليئة بالمزدحمين.. سكون من جلبة وضجيج.

أحس أنني قطعت أميالا كثيرة في حياتي، أشواطاً مبالغ فيها دون جدوى حقيقية. وصلت إلى مرحلة اللامبالاة.. أو ربما سن الخيبة واليأس، اليأس من كل شيء في الحياة.. اليأس من الحياة.

منذ أعوام عديدة وأنا أعيش في هذه الدائرة.. أو ربما الساقية، حالة من الزهق والملل، أرقب كل من حولي دون أدنى اكتراث تماماً كالبهيمة المربوطة في الساقية.. لا تعرف لماذا هي مربوطة ولا تعلم لماذا تدور.. والأدهى أنها لا تريد أن تعرف.

أحياناً أتعجب من هذه الحالة التي أمر بها، إنني أعتبر نفسي امرأة ناجحة، حققت كل شيء في حياتها.. فعلت كل ما يمكن أو لا يمكن أن يُفعل. حتى وصلت إلى ما أنا فيه الآن، أنا رئيس مجلس إدارة في إحدى الجرائد الكبيرة، ولي العديد من الكتب المطبوعة، حصلت على عدة جوائز عربية، بل وعالمية.. أنا في كل مكان.. لا يمر أسبوع إلا وتنشر الصحف أو المجلات مقالاً لي أو عني..

ولا أزال حريصة على ذلك.. حريصة على التواجد في كل الندوات والمؤتمرات، أحرص دائما على الظهور في التلفاز، وإذا أقيم حفل رسمي أو ندوة جماهيرية أو مناسبة قومية ولم أدع إليها ثرت بيني وبين نفسي، ولا أهدأ حتى أحصل على دعوة الحضور. كأني أدافع عن وجودي.. كأن هذه الأشياء التافهة هي التي تثبت ذاتي ورغم كل ذلك فالزهق والملل لا يفارقانني.. فإذا اجتمعت مع موظفي الجريدة وجدت عقلي خاوٍ وخيالي سطحي يأخذني إلى أشياء غريبة لا علاقة لها بموضوع الاجتماع أو ما يناقشونه فيه، وأحاول إنهاءه في أسرع وقت، إذا حضرت ندوة أو حفلاً؛ أشعر كأني زهرة في فصل الخريف، فقدت رائحتها ونضارتها، ذبلت وتساقطت أوراقها.. ربما ذبلت في إحساسي الكلمات من كثرة ما تعودت عليها.. من كثرة ما كتبتها؛ حتى إذا نُشر مقال عني فإني أنظر إليه دون اهتمام وألقه جانباً في امتعاض دون أن أقرأه، وأقول ألم يجدوا غير هذه الصورة كي يضعوها. وعندما أساهم في معرض ما أو حدث ثقافي أو ألقي بيان هام في مؤتمر ما.. لم تعد لدي حماسة البدايات.. أردده في ملل كأني أردد درس قراءة لأطفال صغار. لا جديد في حياتي لا شيء كسابق بدايتي كنت وأنا في مثل هذه النوبات أتساءل: لماذا اخترت ذلك الطريق؛ طريق المسؤولية والشهرة؟ لماذا كل هذا الذي حققته وأكدّ في تحقيقه؟!

هل بحثاً عن السعادة؟!

هل حقاً وصلت إليها؟!

يعيش الإنسان طيلة حياته بحثاً عن السعادة، يجتهد أن يأخذ لها كل معنى، ثم لا يصل إليها بأي معنى.

كنت دائماً نصيرة للمرأة أدافع عن حقوقها، وأشارك في الندوات النسوية، أطالب بتفعيل قضاياها، أثير اهتماماتها على الساحة، وأعتبر أن هذا واجب وطني

سيجعلني سعيدة بعد أدائه، ولكني اكتشفت وبعد فترة من وقت ليس قليل أن ذلك الواجب الوطني هو الذي كان على حساب سعادتي.

أوبخ نفسي كثيراً على هذه التساؤلات.. كنت أشبه نفسي بالغني الذي يملك ملايين الجنيهات إنه يتصور دائما أن الفقير أفضل حالاً منه، لأنه ليس لديه أية مسؤوليات، لا يوجد لديه ما يخاف عليه.. ولم يجرب يوما متاعب ومآسي الشخص الفقير كي تكون المعادلة عادلة، وبين هاتين الحياتين (الغني والفقير) تضيع كل الأمنيات وتهبط السعادة التي يبحث عنها كليهما.. فهذا يحسد ذلك على راحة باله، وذلك يحقد على هذا للنعيم الذي يعيش فيه.. ويضيع كلٌ منهما في معادلة الدنيا وخوارزميات الحياة، ويقيناً هذه الدنيا ليست عادلة إلا بقدر العدل في مكنون الشخص ذاته واتزان قلبه، وهي في كل لحظة تمتلئ وتفرغ، وتفرغ لتمتلئ، ويتبدل حالها، وما بين حالها وحالها مطرقتان يمر بينهما هذا الحاسد وذلك الحاقد فتحطمه.

هناك نوبات فشل مررت بها في حياتي، تكررت كثيراً، ودائما كنت أقوى منها، أقوى من أي فشل.. أواجهه بكل قوتي وأدفعه بعيداً حتى لا أكون ضحية لمطرقة الحياة، ويهتز بها كياني، مرت كل هذه السنوات الطويلة دون أن يكون لهذا الفشل أثر واضح، ولكني الآن وبعد أن وصلت إلى هذه المرحلة من العُمر أعترف.. لم أعد احتمل التجاهل.. أصبحت ذكراه أقوى مني، والآن يجب أن أعترف به حتى أنقذ نفسي من الانهيار الكامل.. أعترف به حتى بيني وبيني لعلي أستطيع أن أسترجع شخصيتي الأخرى، الشخصية التي كنت أرتفع بها دائماً عن مستوى الفشل.

***

لم أختر طريقي في البداية.. كنت طفلة ذكية وعنيدة، ربما شخصيتي التي ولدت بها هكذا.. كانت تثيرني وتفرض عليّ أن أكون في المقدمة.. أو أن أتفوق في كل ما

أوضع فيه حتى أصل إلى المقدمة.. طفولة غريبة لا زلت أحتفظ بذكرياتها الجميلة التي تشي بها الذاكرة بسرور.. هذه الفرضيات التي كانت تتغلغل في وجداني.. في ربيع ما؛ لم أكن أستطيع المرور أمام بقالة ما دون أن أبتاع مكعبات الشوكولا، وقرطاس الأيس كريم.. كانا إدماناً ساحراً.. عند إزالة ورقة القرطاس بحذر شديد مخافة أن يأخذ معه بعض قطع المكسرات الموضوعة في الأعلى.. وأعض بمزاج كتلة الرغوة المغطاة بالشوكولا.. لأغرق في الحلاوة وأذوب في النعومة.. كان أكبر حزن لدي عندما يظهر قمع البسكويت منفرداً، وينتهي الأيس كريم، ألعق شفتيِّ، حيث آخر بقايا الحلاوة، وتأتي زوايا الفم البيضاء تشي بي.

هل كان ثمن الأيس كريم ثلاثين أم أربعين قرشا؟ لا أتذكّر.

كانت الحياة بسيطة في متناول اليدين، أنتظر الصيف وبه تبدأ سعادتي فأقول وداعاً للبلوفر طويل الأكمام وأرتدي ملابس خفيفة، كانت الجوارب الشفافة موضة وقتها، وكانت ألوانها تثير عينيّ وتبهج قلبي، الزرقاء والسوداء أحب هذين اللونين، أحبهما لأنهما يأخذانك بعيداً يجعلانك تفكر في كل شيء تمر به.. كل ما هو جميل لونه أزرق، السماء والبحر؛ الأزرق هو مرآة عاكسة للون كوكبنا. أحبه بمختلف درجاته، النيلي والبترولي والسماوي والغامق واللازوردي.. لأنه أيضًا لون الأحجار ولون الحداثة ولون أشهر مراحل بيكاسو.. أمّا الأسود فهو الوقار المهيمن على مخاوف كل البشر.. نذير الأحزان والفقد.. لون العدمية في أوروبا والعبث في الستينيات وهو لون الفخامة والأناقة والبريق والألق.. وجنيات الليل التي لا تخرج إلا من أحشاء الظلام لتشتبك مع الحواشي في فستان أسود بديع ببريق أخاذ جدير بملوك وأميرات يحتفون بسحر الغموض، أما عن تلك الجوارب فاشتريت الكثير منها، وعليه لابد من ارتداء تنورة قصيرة، قصراً يكشف عن بعض الساق.. لمسات الهواء للجلد تحدث زغزغة وتعطي شعوراً بالخفة.. كنت أحب

هذه الأوقات وأحب هذه الحركات، صحيح أن ساقيّ لا تزالا تلمع كالثلج في بياضه وستأتي شمس الصيف لتضع عليها قُبلاتها وتصبغها بالسمرة.. ولكن الجلد ينتظر هذه الأشياء، الدفء وقبلة الحرية.. بكل بساطة هذه هي الحياة.

صديقاتي أيضًا ارتدين الجوارب الشفافة، هبة التي كانت تكبرني قليلا وميس التي كانت من نفس عمري، وتأتي ولاء التي تصغرني بشيء بسيط، كانت هبة ابنة دبلوماسيٍ معروفٍ لدى الخارجية، كنا لا نراها إلا قليلا لأنها كانت بالنسبة لنا سندريلا المنطقة التي نسكن فيها تتحدث أكثر من لغة وتعرف جيداً كيف تأكل بالشوكة والسكين، وترتدي دائماً الفساتين القصيرة الجميلة التي كانت حلم أي فتاة، كنا نجتمع في الأعياد والمناسبات وكنت أحب أن أرى الدبلوماسي والد هبة.. أحب ثقافته وطريقة حديثه الممتعة التي كانت تأسرني وتعذبني، كان دائماً يحدثنا عن أوروبا ومدى تطورها.. أمريكا ومدى حداثتها، كان يقدس تعاملهم الآدمي مع الإنسان ثم يسخط العيش في بلادنا وإني أعلم يقيناً أنه يحمل في قلبه حباً عظيماً تجاه هذا البلد قدر حمله أيضاً في قلبه هضاب أوروبا وتطورها وتقدمها.. ولكن أيضًا هنا هضاب أخرى، هضابٌ وطنية تحمل التاريخ والحضارة، كنت أجمع في رأسي كل الآراء والانطباعات.. جميع ما يقال بينما الهواء الطروب يداعب ركبتيّ، كان ذلك الدبلوماسي منبع ثقافتي وكنز أحلامي.. لطالما استعرت منه كتب القانون والفلسفة وإدارة الأعمال وأمكث أترجم مصطلحاتها وكلماتها وأحاول فهم ماذا تقول وماذا تحتوي.. أجتهد أن أتصرف كمدير لشركة.. أو كأني مسؤولا في وزارة.. أو أني رئيسة لجمهورية، وكانت كلها أحلام أسعى لتحقيقها.

تعلمت من صغري أن أكون خطيبة مفوهة.. ولم أكن حتى في هذه الفترة على الرغم من صغر سني أقرأ ما يكتب لي من خطب بل كنت أكتب أنا ما أقوله، وإني أهيم ضحكاً الآن في كل مرة أتذكر فيها ما كنت أقوله حينها؛ إنها خطب فيها كثير

من النفاق، نفاق تكسوه العاطفة، نفاق سياسي، نفاق متعمد.. وهيهات إن كنت ألقي خطبة أرحب فيها بزيارة إحدى الشخصيات للمدرسة.

إنها في الحقيقة كانت نزعات تنبع من طبيعتي في تطلعي إلي الوصول، كانت بمقدار يزيد وينقص حسب الموقف، وذلك لأن الطبيعة الإنسانية تعالج نفسها بما يعينها علي البقاء، ليس البقاء فقط وإنما التطلع إلي الأمام أيضًا، وما يجعلها صالحة علي الوجه الأفضل، فهي تغري الإنسان مرة، وتخسف به في أخرى، ولا أنكر أن هذه الفترة من عمري أعطتني دروس فن النفاق أو فن الدبلوماسية كما يقال عليه في المصطلح الراقي، والدبلوماسية عنصر أساسي من عناصر التعامل مع المجتمع، وكثيرٌ من الخطب التي ألقيها الآن في الاجتماعات والندوات تعتمد علي الدبلوماسية، أو بمعنى أدق أقول بصراحة أنها تعتمد علي النفاق، ولكنه نفاق يقوم علي موهبة في فن إلقاء الخطبة بحيث يكتسب قوة الإقناع وليس كالنفاق المفضوح الذي كان يتضمن الكلمات التي ألقيها وأنا طالبة في المدرسة الثانوية.. وبالمناسبة النفاق لا يعني بالضرورة المديح والتأييد المطلق في كل شيء ولكنه يتطلب أحيانًا الهجوم والمعارضة، أقول هذا كمجرد درس لمن يقرأ هذه الاعترافات. وبالطبع لم تكن هذه كل حياتي بالفترة الثانوية فقد كنت في الوقت نفسه أعيش الحياة العامة في كل صورها خصوصا مجال النسوية والحركات الوطنية والثقافية، كنت أسعى إلى الكمال.. أن أثبت وجودي في كل مكان أعتقد أنه يجب أن يكون لي فيه وجود.

كنت متمردة على المجتمع.. لا أرى تمييزا واضحاً يفصل لعب الولد عن البنت بمعنى أن من حق البنت أيضًا أن تلعب الكرة في الشارع وتعلم فنون القتال وغيره. وأبدعت في كل هذا، ربما كان لدي مساحة من الحرية لأني البنت الوحيدة لأب وأم جميلين.. بسيطين في مستواهما المعيشي ولكنهما يوفران لي كل ما أحتاجه

ويلبيان لي كل رغباتي. دائماً أتمسك بالسعادة القصيرة.. والسعادة القصيرة قصيرة، تأتي وتذهب وتأتي من جديد في هذا الشكل أو ذاك، لها أسماء (الجيب القصيرة، الجوارب الشفافة، الفساتين، المكياج، الكتب الممنوعة، الخطب، الندوات.. وذلك حسب فصول السنة).

وعندما تخذلني الحياة طويلاً.. وأرى إصبع الضياع المهددة تأتي دون سابق إنذار، تقتحمني وتقول: ها أنا ذا. كأننا أصدقاء قدامى مثلاً.

وتعود الذكريات..

أحاول الهروب، أنقذي نفسك، اذهبي إلى مقهى لطيف، ادخلي السوق، التقي بأصدقائك، كوني حاضرة في حاضرك.. هذا سيساعدك على دوار الضياع حتى لو ظلت الأنا جوهراً مخادعاً خطراً.

كانت فترة الجامعة، وهي الفترة التي بدأت تظهر فيها نباغتي الأدبية وتتشكل فيها حياتي السياسية. ففي عامي الأول ترشحت لرئاسة اتحاد الطلبة وكسبتها بما لدي من موهبة في الإقناع، وكنت آنذاك أصغر رئيس اتحاد طلبة في الجمهورية.. وأول رئيس اتحاد من جنس البنات، والحقيقة أنني لم يكن في داخلي أي اهتمام لمشاكل الطلاب وسماع أحاديثهم، وإنما لأحقق إنجازا فرديا في حياتي وأكسر القاعدة الروتينية أن المرأة مكانها بيتها وزوجها.. أن أُفعّل دور المرأة في القيادة وأمهد الطريق لمن هم خلفي حتى تُحقق ذات المرأة ويكون لها دورها المجتمعي في الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية.. في ذلك الوقت الذي كان ينظر فيه للمرأة على أنها خلقت لخدمة الرجل.. وابتدأت بعدها الخلافات والمشاكل وكل واحد من الطلاب لديه مشكلة ما.. أو طلب ما.. و... و...

ولكني كنت قدر المستطاع أحاول توصيل صوتهم إلى إدارة الجامعة أو عمداء الكليات وإن لزم الأمر إلى رئيس الجامعة الذي كان يعمل ألف حساب للطلاب

خوفاً من التجمهر وتنظيم الوقفات الاحتجاجية التي كنا نبرع فيها دائماً ونظهر منظمين بشكل كبير.

أسست أنا وأعضاء الاتحاد أول جريدة رسمية باسم الجامعة تتحدث باسمها وعينت نفسي رئيس تحرير لها، على أن يكون رئيس مجلس الإدارة هو رئيس الجامعة وهو منصب شرفي له، وهذا كان أول منصبا إداريا أتنصبه، والاتحاد أول دور قيادي أكون فيه، والانتخابات أول تجربة حقيقية أخوضها.. لأكسر حاجز الفتيات التقليديات واللاتي كن يهتممن فقط بإيقاع شاب في غرامهن ويعزمن على عشوة لطيفة في مطعم أنيق، ولم أتخل عن حياتي العاطفية، كنت مستعدة للانغماس في الحياة العاطفية.. رغم أن شيئا ما كان كثيراً ما ينذرني بعواقبها، غريزة تنضج في أعماقي باكراً في بدايتها، أن العواطف لا يعتمد عليها وأن كلمة أحبك تخفي بين جنباتها جرثومة الخيبة وهذا تكاثر كثيراً في فترات ولايتي كرئيسة اتحاد الطلاب لجامعة من أعظم الجامعات، ورئيسة تحرير، مما فتح المجال أمام الكثير ليتقرب ويتودد.. وكنت لا أبالي.

***

ولا أريد أن أستمر كثيراً في حياتي العامة لأنها على الرغم من انعدام التقليدية فيها إلا أنها حياة لا تحتاج إلى اعتراف، لأنها حياة مفتوحة معروفة وإن اختلف الرأي في تقديرها.

أريد أن أعترف هنا بحياتي الخاصة، والحياة الخاصة عند معظم الفتيات تعني قصة حب، وحتى تخرجت من الجامعة لم يكن في حياتي قصة حب حقيقية وليس معنى ذلك أنني حرمت نفسي من لذة الحب قاصدة، أو أني لا أعرف إلى الحب طريقاً.. لا؛ فمنذ صغري وأنا أقرأ كثيرا عن قصص الحب وروايات الغرام، بل إني قرأت كثيرا عن كتب الجنس، وكنت أبحث عن الكتب التي تتحدث عن اللقاءات

الجنسية بشكل علمي، وأقرأها بنفس الحماس والاهتمام الذي أقرأ به كتب كلية الآداب، ولم أتخل عن أنوثتي في أي من فترات حياتي، وكثير من الشباب حاول معي.. ولكني لم أجد طوال هذه الفترة من العمر الفتى الذي يستطيع أن يرتقي بي إلى مستوى الحب الذي أبحث عنه، الكثير والكثير أبدى إعجابه.. وكنت أتجنب كل هذه المحاولات بل وأصدها صداً منيعاً.. وكان يتسلل إلي أنني على قدر عال من الجمال والجاذبية تكفي لإيقاع أي شاب في غرامي. ولكن حياتي العامة كانت تغلب على حياتي الخاصة، ولم أجد ذلك الشاب الذي استطاع أن يجعل حياتي الخاصة تتغلب على حياتي العامة. أو أن يشدني من حياتي العامة إلى حياتي الخاصة. ولم أكن أرفض هذه المحاولات بنفور أو قلة ذوق ما دامت لم تصل إلى حد الاعتداء أو التطاول وإنما كنت أتقبلها بصدر رحب وابتسامة لائقة، ولدي القدرة في تحويل هذه المحاولات الإعجابية إلى صداقة حقيقية ربما تكون أجمل بكثير من العاطفة.. وتكونت صداقات كثيرة ودائرة معارف كبيرة.. كان لها الفضل فيما أنا فيه الآن وكانوا دائما يكنون لي كل الاحترام على تقبل كلماتهم وعدم تفسير نواياهم إلى أفكار سيئة.

أنا متيقنة تماماً أن الرجل لا يستطيع أن يأخذ من المرأة أكثر مما أرادت أن تعطيه، ومن هنا تكون اعتقادي الخاطئ أن الحب ما هو إلا لعبة في أوقات الفراغ بقصد التسلية.. وبما أنني ليس لدي وقت فراغ فإذن ليس لدي وقت للحب.. عشت في هذه الفترة أرى أن الرجل هو مجرد قصة من القصص العاطفية أو بطلا في رواية رومانسية لمجرد تحريك عاطفي، أو اللعب بأحاسيس بدلا من اللعب بعساكر الشطرنج. وكتبت أولى رواياتي الاجتماعية والتي صنفها الناس على أنها رومانسية عاطفية ولا أجد فيها أية عاطفة ولكنها على كل حال لاقت نجاحا لم أكن أتوقعه، وتوالت الروايات التي بلغ رصيدي منها تسعة ومجموعتين قصصيتين، ومن ثم اتجهت إلى الكتب الثقافية والبُعد عن كتابة الرواية لأنني وجدتني أصنع

واقعاً مزيفاً، واقعاً هزليًا، افتراضيًا غير حقيقي. وكما أنني لا أجِد في حياتي ما قرأته.. فلا أريد أن أكتب لفتيات جيلي ما لن يجدنه.. وأجعلهن يعشن في واقع أنا لم أره، اهتممت في بداية فترة كتابتي بكثرة التواجد إعلامياً وفي الفضائيات.. كنت أطمح إلى ذلك كثيرًا.

***

وتمر الأيام مسرعة كأنها في سباق دوراني وتكبر معها أعمارنا.. كنت أدرك أنه سيأتي يومٌ عليّ لابد فيه أن أتزوج، كنت أخشى ألا أقابل فتاي قبل هذا اليوم.. وتقدم ابن عمي ولم أجد فيه شخصية أبي أو عمي القيادية.. وتقدم ابن خالي فوجدتني أعتمد على ذاتي أكثر منه، ولم يكن هناك مفر إلا أن أنتظر.. أنتظر فقط ولا شيء آخر.

كان هناك إيمان راسخ بأنني لن أتزوج بشاب لمجرد أنه يمتلك المال، مال لم يكد حتى في جمعه وإنمّا من جهد أبيه، أو أتزوج كما يقال زواج صالونات، وينبغي عليّ فعل ذلك لمجرد أن المجتمع ينظر إلي بتنمر "عانس" وهو لفظ حيواني يضعنا دائما في سخف القبول بأي شيء على أي حال.. كي لا يقولون سيادتهم علينا عوانس. الموضوع ليس تجارياً.. - أنا شخص لدي أموال لا أعلم أين أصرفها فأتزوج - وحتى في العمليات التجارية فأنت لا تذهب لشراء حبات الرمان إلا إذا كان لديك يقينٌ راسخٌ أنك تريد بعض ثمرات الرمان، لا تذهب لشراء السمك إلا إذا كان لديك لهفة استطعام السمك، قس في حياتك هذا المبدأ في كل شيء ترغبه أو لا تريده، لا بد أن يكون هناك عاطفة في القلب يحركها.. أو تحركه، ويتغلب كلٌ منهما على الآخر أو أحدهما على الآخر، أما أنا فكنت أبحث عن حب عقلي.. حب أفلاطوني، الحب الذي كتبته في حكاياتي ورويته من بنات أفكاري وأحبار أقلامي، خاصة في تلك الفترة التي كثر فيها الطلاق.

في تلك الحالات التقليدية يطلب من الشاب المقتدر من أجل تحقيق الزواج والرفاهية شروط تعجيزية كمؤخر يصل إلى مئات الآلاف أو زواج مسيار ناقص الشروط ويخالف كل مبادئه من أجل المال والصرف ببذخ.

في الواقع دور المرأة سلبياً اتكاليا في الجانب المادي وترى على الرغم من أننا نطالب بالمساواة وتكافؤ الفرص في كل شيء إلا أننا في الزواج تحديداً نتمسك بدور المعالة ونبحث عن الثري لماله، ونطالبه بالإغداق والصرف السخي، ثم نرفض ما يمليه من شروط وأحكام.

والحقيقة ولأول مرة أعترف هنا أن الرجل معه حق فيما يفعله، كما هو الحال لو طبقت الموضوع على نفسي، بمعنى أن أي شخص سأصرف عليه سأرى أن لي حق عليه فأنا أشاركه مالي، والمال يأتي بتعب ومشقة وحرمان من النوم لتأمين الدخل الذي يشاركني فيه.. فكيف لا يخضع لشروطي.. ويفعل ما آمره؟

عشت حياتي باتزان وترقب في كل شيء، كنت أطبق ما أقرأه في الكتب.. أحاول تغيير أي شيء. ولكني لن أغفر لكل كتاب أوهمني أن الحياة وردية وهي أرض مليئة بالأشواك.

***

حتى كانت وفاة أبي، الرجل الذي طالما كان بجواري داعما لقراراتي، وضع أبي فيّ آمالا كبارا، ملأ نفسي بعظائم الأمور، كنت أشعر وأنا بجواره بقوى في جسمي لا يقوم لها شيء في هذا العالم، فانطفأت بوفاته كل معاني الأمل بداخلي، وكل معاني الحياة التي أصبحت كالعلقم المر.. حتى لو أضفت لها بعض قطرات العسل فلا تحليها ولا بقيت حلوة، وأصبحت امرأة ضعيفة خامدة متألمة بائسة قانطة لا أشعر ولا أفكر ولا آخذ ولا أدع، كأني جثة ملقاة لا روح فيها ولا حياة، آمن بي أبي.. تعاطف معي، تضامن لي، في كل شيء قررته.. في كل ما فعلته تجاه حياتي، ربما

كان تعاطفه ناتج لأني ابنته الوحيدة وليس لدي إخوة، رآني الفتاة والرجل، الساعد والمتكأ، الملبي لكل شيء، كان ولا يزال متاع الحياة بالنسبة لي.. ولم أتقاعس في أن أحقق كل أحلامه أو ما كان يريد أن يراه في هذه الدنيا، كلما أرادت أمي تزويجي.. جاء هو وقال دعيها لراحتها، تختار من تحب، كلما عصفت بي الحياة أفر إليه فيربت على كتفي ويقول دعيها تأتي كما يريدها الله.. وافتقدت السند.. كانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير.

إن حجم الآلام يكون على حجم المنزلة من السمو في الحب، فبقدر الحب الذي تعطيه لشخص ما سيكون الألم، كلما كنت تحبه أكثر كان ألمه أكبر عند الفراق.

جاء كل أصدقائي ليعزوني.. وكان العزاء ضخماً لم أتوقعه من رجال أحزاب ومؤسسات فكرية وثقافية، ومن ضمن المعزّين رجل قمحاوي البشرة عيناه واسعتان تتكحلا بسواد فخم جزيل.. ذات رموش طويلة ولحية وشارب خفيفين، معتدل القامة بشعر كثيف، لم تفارقني صورته وحاولت أن أحفظ ملامحه ولكن كان يصعب علي فعل ذلك في ذلك التوقيت، ولكني سألت أمي عنه فأجابت أنه رحيم ابن صديقتها في العمل يدرس الهندسة المدنية.. سمعت صوتا جاء من داخلي ظل يتكرر.. كل هذا لا يزال يدرس! كانت الفترة التي تلت الوفاة مرة كالعلقم تفقد لذة البهجة، لا أتذكر أننا ضحكنا لشهور أنا وأمي، شيء ما ينقص البيت.. انقلب كل شيء رأسا على عقب.. كل شيء حتى اللمة على مائدة طعام واحدة.. أو التجمع أمام شاشة التلفاز.. كل شيء أصبح بلا لون ولا طعم، حتى الطعام، لم نكن نأكل إلا ما يبقينا إحياء.. وحتى الحياة أصبحت بلا مذاق، تكررت زيارات رحيم وأمه لبيتنا، وكان هناك عامل مشترك بيننا وهو أن آباء الاسرتين قد فارقا الحياة، ولكن الفارق بيننا أنه شاب وأنا فتاة.. وله أخ أصغر منه وأنا ليس

لدي إخوة، كانت نظراته فيها الكثير من الإعجاب.. ولم يشغلني ذلك على الإطلاق والسبب الوحيد في أنني أجلس لجوارهم هو رزانته وثقله في الكلام، كنت أرى أمي سعيدة بقدومهم حال كون بيتنا أصبح له صوت من جديد.. فأحببت ما يلهيها عن التفكير في شؤون البيت والأسرة.. وعرفت من حديثهم الكثير أنه في آخر عام له في كلية الهندسة، وأن لديه موهبة العزف على آلة الكمانجا.. كنت أحب تلك الآلة وأحب سماعها.. وبدأت في التعرف عليه عن قرب ولكن بحذر، فرأيته يحب الحياة ويأخذها من الناحية المضيئة لها.. كل أشكال الحياة حتى السياسية منها، والتي لا تتضح في بلدنا، إلا أنه يأخذها كما هي دون مغالاة في شيء، كان تركيبة عجيبة ولغزا غريبا، ربما هوايته وحبه الشديد للموسيقى جعله بهذه النظرة المختلفة للحياة.. الهواية تهذيب للروح فهي من الهوى أي يفعل الإنسان ما يهواه ويحبه بشغف وإتقان.. وهذا ما كنت أجده بعد إنجاز كتاب ما.. تشعر أنك مهذب.

عندما سألته: ما الممتع في عزفك؟

أجاب: تبعدني عن رفقاء السوء والمقاهي والبارات، هي تسمعني إلى أن أفرغ من كل شيء، أحيانا تغضب مني عندما أبتعد عنها.. أشعر أنها تهجرني، ولا ألوم عليها في ذلك.. فلا يمكن أن أبتعد عنها فترة من الوقت، ثم أعود لأعزف عليها كما لو كانت في حضني. هذا محال.

أحببت فيه أنه دائما ينظر بتوازن تجاه كل شيء حتى في هوايته وعزفه وهندسيته التي أيضًا يحبها، وكان كل شيء يسير كما لم يخطط له.. لأن التخطيط الدقيق أحيانا يفشل، حتى كان موعد تخرجه من كلية الهندسة والذي أقيم في المسرح الكبير في دار الأوبرا، ودعاني بإصرار رهيب لأنه كان أحد عازفي الأوركسترا التي ستقدم الحفل.. كما أنه ستكون له فقرة يعزف فيها لوحده بالكمان وكذا في جميع أفراد الفرقة الموسيقية، يستعرض فيه مهارته وقدرته الفنية، وكانت هذه

أول مرة أسمع فيها رحيم عن قرب، ولأول مرة أسرح في موسيقى لهذا الحد.. على الرغم من كثرة الحفلات الموسيقية التي حضرتها إلا أن في هذه الليلة كانت الموسيقى لها سحرٌ أخّاذ جذبني حتى ثمالتي وغرقت فيها. ولاقى رحيم تصفيق شديد وتجمهر الناس حوله.. وعلى الرغم من فرحي له في تلك الأمسية إلا أنني شعرت بغيرة لا أعلم إذا كانت منه أم عليه.

كان نجم الحفل بلا منازع، ولأول مرة أحضر حفلا لا أكون فيه نجمته، أنا أحب أن يكون كل شيء ملكي.. لا أحد يستخدم ما أستخدمه، أي إنسان، حتى الذي أتحدث معه فقط، أشعر أنه يخصني أنا.. لا أحد يحدثه غيري، حتى لو لم يكن بيننا أي شيء، ولكن أيضا لا أحد يتحدث معه غيري.. إنه لي أنا فقط، حاولت أن اتجاهله ولكن لم يدم كثيراً تجاهلي فذهبت لأبارك له، وكانت أمه بجواره، فاحتضنتني وقبلتني كثيراً وشكرتني على قدومي.. وما إن استأذنت للرحيل إلّا وفوجئت أنهما حجزا عشاءً على ضفاف نيل القاهرة، حاولت الاعتذار ولكن كان دون جدوى، أصر بإلحاح غريب، ولم أقو أن أفسد فرحته في تلك الليلة، فذهبت معه وأمه برفقتنا، والجميل أن أمي كانت سبقتنا إلى المطعم المقصود من البيت ولم تحضر الحفل، إنها لا تستطيع سماع الضوضاء لمشكلة في أذنها، وأثناء الرحلة القصيرة عرفت منه أن أباه توفاه الله في أول عام له في الجامعة.. كان يتمنى أن يكون حاضراً معه الآن ليحضر معه ذلك الحفل ويفخر به، تذكره وقتها ورأيت في عينيه دموعا محبوسة لا تقدر على فراق الجفن، اجتهد في حبسها حتى لا يفسد فرحة أمه بهذا. كنت شديدة التركيز في كل شيء يقوله وفي حركات يديه ونقلات عينيه، لا أعلم لماذا كل هذا ولكني أحببت أن أكتشف المزيد عنه، أتوغل في بحره الكبير.. لا أدري حقيقة الأمر ولماذا أفعل هذا ولكني تابعت المسير، أنا مدركة أنه يصعب علينا فهم النفوس البشرية.. متيقنة أنه لا فائدة من فهم النفوس ما دمنا لم نر منها إلا الخير.

"نجتهد كثيراً كي نفهم الآخرين.. رغم أننا كثيراً ما نفشل في فهم أنفسنا".

وجدت رحيم يقرأ كثيراً ولكنه يميل إلى قراءة كتب التاريخ والفلسفة أكثر من أي شيء، ووجدت هذا مدخلا جيدا لأستعرض عضلاتي الفكرية كأديبة لها العديد من الكتب، ودار حواراً راقياً دلّ على مخزون ثقافي هائل كائن في مكنونه العقلي، وقطعت حديثنا الفلسفي أمه وهي تقول لم يتبق سوى العروسة.. فضحك رحيم ضحكاً واسعاً احمرت له وجنتاه وضحكت أنا على ضحكه الغزير، كانت له أسباب مقنعة لتأجيل الفكرة في الوقت الحالي، منها أن أمامه خدمة عسكرية لابد وأن يتفرغ منها أو يقضيها، أحببت ذلك أيضًا أو إن دق التعبير ارتحت لأنه لا يفكر في الزواج.. رغم تيقني أن هناك نظرات إعجاب كبيرة تحمل بين طياتها خجلا شديد.

انتهى العشاء الذي لم أتناول منه سوى قطع البطاطس القليلة بحجة الرجيم ولا احتاج إلى رجيم ولكني استسهلت قول ذلك لأشتري راحتي، أصر يومها أيضًا أن يوصلني أنا وأمي إلى المنزل، وترجلت أمه برفقة أخيه مروان وذهبنا نحن برفقته.. كان ليلاً في تمام الواحدة.. وصلت إلى منزلي بعد توديعه عند باب العمارة، وعلى الرغم من كثرة المهام التي ينبغي أن أفعلها إلا أنني جلست على سريري وفي يدي الورقة والقلم، كنت منذ فترة اعتبرتها بعيدة وهي لا تكاد تتخطى العشرين يوماً لم أكتب شيئا، وهذه قد يراها الناس قليلة وأراها بعيدة، لم يكن هناك موضوع معين أريد الكتابة فيه، وإنما حديث النفس للنفس وترجمة النجوى الداخلية كانت هي الغالبة وهي التي جعلت عينيّ يقظة حتى زقزقة العصافير.

وقامت أمي تعد الفطور صباحاً فوجدتني في شرفة الصالة متكئة لا أفعل شيئا، فقامت بمعاتبة صباحية حال كوني يقظة ولم أجهز الإفطار.. وكثر الحديث حول أنها لم تعد قادرة على الصحيان باكراً ولا أن تفعل شيئا بمفردها، كما أنني أصبحت على حد وصفها "شحطة" لا ينقصني يدٌ ولا قدمٌ كي أجلس متكئة والفطور يأتي إلى

عندي، وأردفت أنه حان وقت الزواج كي تطمئن عليّ قبل أن تذهب إلى والدي.. قمت على الفور قبّلت يديها ورأسها.. وارتديت ما أمامي من ملابس من دون إفطار، لكنها وقفت ممتنعة أن أخرج من الباب قبل أن أتناوله، فعرفت أن اليوم أصبح صعباً، كان كلامها قاسٍ جعلني أشعر بخيبة الأمل.. وأفكر في أمور عدة، ولكن كل عقلي يصب في أنني لن أتزوج وأتركها لحالها.. هذا لا يمكن أن يحدث، عندما قلت لها ذلك ببراءة طفلة صغيرة، صرخت في وجهي، تزوجي فقط وأنا سأدبر حالي، أنا أريد المنزل لي وحدي، ضحكت من ردة فعلها وخرج على الرغم مني كلام غير مفهوم، مثلاً قلت لها: حاضر سأقف في الشارع أو أمام الجريدة ممسكة بلافته أكتب عليها: تعالوا يا شباب تزوجوني لأن أمي تريد أن تجلس في المنزل لحالها.

الأدهى أنها قالت: إذا كان هذا سيساعد في تزويجك.. فلا تتردي.

وانقلب الحديث إلى سخرية حقيقية وتهكم على حال امرأتين تجلسان في منزل واحد وتريدان عريسا. هذه الضحكات والمزاح والنكات تجعل اليوم لطيفاً.. لم أقدر على النزول من البيت ومباشرة العمل، قررت أن أكمل اليوم معها، علي أن أنام ساعتين وأقوم للمشاجرة مرة أخرى، واحتضنت سريري الذي كان أقرب من العمل ممسكة بالهاتف فوجدت رسالة نصية محتواها لن تذبل روحٌ الورد صاحبها.. صباح الورد على ست الورد.

لا أعلم لماذا كتب رحيم هذه الرسالة ولم أجد مبررًا لمحتواها.. ألقيت الهاتف جانباً وذهبت في النوم، نمت كثيراً، لم أفق إلا على صوت أمي وهي تقول: السادسة مساءً والغداء جاهز، فزعت من السرير مدركة حجم المعاناة التي سأعانيها الأيام القادمة في إعادة ضبط مواعيد النوم مرة أخرى، هذا الأمر شاق جدا على كثيري التفكير، ظللت ليلتها أحاول إنجاز ما يمكن إنجازه من أعمالي المتأخرة، وكتبت

كثيراً في كتابي البحثي "ازدواجية الحوار" حتى غلبني النوم قبيل الفجر، وضبطت كل التنبيهات التي في هاتفي وهاتف أمي كما تركت لها رسالة وضعتها على باب غرفتي إذا لم أفق.. أيقظيني بالماء. وقمت متثاقلة في السابعة صباحاً بعد دقات كثيرة من كل التنبيهات، والعديد من السباب التي لم تبخل علي أمي بشيءٍ منه، كان الكثير من الإشعارات في الهاتف ولم أنتبه لشيء، قلت سأقرأها وأنا في طريقي إلى العمل، اشتريت الجرائد وأوقفت التاكسي متجهة إلى مقر العمل، كانت هناك رسالة أخرى من رحيم "ابتسمي فجمالك لم يخلق للحزن". ابتسمت رغم كل هذا الضرب على وجهي من آثار السهر.. كنت وقتها أعمل في قسم الرأي بإحدى الجرائد القومية وكان رئيس التحرير لا يثق في أحد غيري، وكنت أعتبر هذه الثقة شيئا كبيرا، كنت أحرر له مقالاته وأنقحها، وكثيراً ما كتبت له عندما لا يكون له مزاج للكتابة أو في سفر. لم أكن أحب هذا العمل ولكني وجدتني فيه أمارس هوايتي المحببة عن قرب، كما أجد راتبا آخر الشهر بالكاد يكفي مساحيق التجميل وطلاءات الوجه التي أصبحت باهظة، أما أرباحي من الكتب فهي التي نعتاش منها أنا وأمي بجانب معاش أبي، كنت أتعجب من حالنا أو شبابنا، في بلدنا نحتاج لأكثر من عمل، واحد ليكفي مستلزماتنا الشخصية، والآخر لنأكل ونشرب، وأحيانا هذا لا يكفي. الكثير من الناس يفعلون هذا وهم في سخط حقيقي تجاه ذلك، ولا ننتظر منهم أن يبدعوا في شيء، الإنسان الذي يشغل نفسه فقط في أن يكسب قوت يومه لا نلومه على أنه لم يبدع ويقدم لبلده، لا يستطيع أن يوفر وقتا ليجتهد ويقدم إبداعاً خالصاً أو إنجازاً واضحاً.. إذا كانت بلده لا توفر له حتى مجرد لقمة العيش الهنية. كنت أعلم أنني سأصل في منصبي هذا، وبعد دوام شاق.. جاءت الترقيات وكان نصيبي منها أن أصبح رئيسة لقسم الرأي وأسندوا إلي إدارة التحرير.. وكان اسمي يُكتب على الصفحة الأولى من الجريدة.

كانت رسائل رحيم الصباحية تصلني بشكل يومي ولفترة طالت كثيراً، كنت أتعجب من عدم مله، كنت لا أرد على رسائله قاصدة التجاهل لسببين؛ الأول: ألا يكون هناك مدخل للكلام والإعجاب ووقتي ومجهودي لا يسمحان بهذا، والثاني: أنه أصغر مني سناً وهذا الأمر كافٍ لألّا أرد.

كان هذا الموضوع يضعني في ضغط عصبي ونفسي، كنت أصد كل المحاولات لمن هم حولي، كنت أشعر بالضجر والخوف، مع رغبة وإلحاح أمي في تزويجي، كل هذا كان يسبب لي صداعا ويضعني في أكثر من مأزق والخوف يتملك مني.. وعنادي يكثر مع كل هذا.

دخلت مكتبي في صبيحة يوم جديد مليء بالمهام، وجدت برقية تهنئة مصحوبة بعلبة شوكولا موضوعة على المكتب بشكل أنيق، كان محتواها لطيفاً:

"إلى الجميلة العزيزة ريم".

كان لزاماً أن أرسل برقية أبارك بين سطورها عملك الجديد، وإني أثق بك في أنك على قدر عال من المسؤولية ما دمتِ لا تفكرين سوى بعملك ولا تجتهدين إلا في تحقيق طموحاتك وأهدافك، وإني أسألك أن تستمري فيما تقدمينه لأنه يستحق البقاء ويستحق منا أن نعطيه حقه، لقد مكثت طوال الفترة المنقضية من عمري أقرأ فيما كتبته، بل إنني حفظته كله عن ظهر قلب محاولاً أن أتقمص دور الناقد.. إلا أنني سرعان ما عَلقت بين الأبطال وغرقت بين الحكايات فوجدتني أتألم معهم وأعيش فيهم.. ولن أكون كاذباً إذا قلت أنني أكلت وشربت أيضا على موائدهم، وسافرت بلاداً كثيرة عبر رحلاتهم، فكنتِ حاضرة يا ريم في كل يومي.. وإني أسألك أيضاً ألا تسيئي الظن برسائلي الصباحية فإنها مظلومة، فالأمر كله لا يخرج عن أن أفكاري تتواثب حولكِ، لأنني أردت أن أمسك بكِ من الجانب الذي تحبينه، وتكتبين عنه بين جنبات سطورك ألا وهو الاهتمام. وإن كان ذلك أمراً

سخيفاً لك. فأعدك أنه لن يحدث مرة أخرى، كان ذلك ناتجا عن أنك ربما موجودة بين يدي أقرأُك. ولكني أعتقد أنني سلكت طريقاً خاطئا، حال كونك تأتيك مئات الرسائل اليومية بحكم عملك وحظك الكبير من الشهرة، ولكني شعرت ربما لفترات قليلة أن هذا واجبي.. وكان يجب أن أفعله، وإني أؤكد لكِ أنني قد أعود إلى إهمال ذلك الواجب.. على أنني سأحاول أدائه قدر ما أمكنني، وأما من ناحية أخرى فإني أطمئنك علي ولا تقلقي لأن قلقك هذا ربما يكون بمثابة قشة صغيرة أخيرة أتعلق بها، وهذا لا يرضي ضميرك الأدبي، وفطنتك وكياستك العامة، وإني أعلم أنني أصغرك عمراً.. أو ربما تنظرين إلي هكذا.. ولا أحب هذه النظرة التي لا قيمة لها إلا عند السطحيين العامة الذين لم يقرأوا كتاباً في حياتهم، وبما أنك لست فقط قارئة بل كاتبة ناجحة فلا يمكن أن تكون هذه نظرتها تجاه أي شيء في حياتها.

أحيانًا تمنيت أن أكون مرآتك التي في غرفتك، إنها تتطلع إليك مباشرة عندما تستيقظين من النوم وقبل أن تخلدي إليه، سأكون في ذلك المقهى الذي شهد أول لقاء لنا على ضفاف النيل.. سأكون اليوم وحدي دون أن يكون معي أحد، إن شئتِ فأنا أنتظرك في تمام الرابعة.. وإن لم تأتِ فسأكون هنا كل يوم في تمام الرابعة إلى أن تأتي".

أغلقت الرسالة ووضعتها على المكتب أمامي.. حزنت وفرحت، أنا أحب القارئ الذكي وهذا سبب فرحي.. فحاجتنا إلى قارئ جيد تفوق حاجتنا إلى كتاب جيد. وحزنت لأنه ربما وصل إلى فيما أفكر فيه تقريباً؛ هل أنا مكشوفة إلى هذا الحد!

إن ذكاءه في القراءة شديد، وفطنته في قراءة الأفكار مذهل، لم يكن أمامي سوى أن أذهب لأغلق هذا الباب، أغلقه على أي حال حتى لا يكون هناك أي شيء، لأنه ليس هناك شيء. وذهبت..

ألقيت عليه التحية.

قال:

- كنت أعلم أنكِ ستأتين.

صحت به:

- لم أحب أن تجلس هنا كل يوم في الرابعة. حتى لا تنفد نقودك.

- إن الأموال التي لا تذهب في إرضاء النفس، ليست لها قيمة.

- أفهم من تلك الكلمات أنك غني؟!

- أنا غني بمعرفتي بك.

- قلت أنك قرأت كل أعمالي، والحقيقة أنني جئت لأناقشك فيها. أنا أحب أن أناقش قرائي عن قرب.

- أفهم من هذا؛ لو كل قارئ أرسل إليك، ستذهبين لمناقشته؟

- رحيم؛ ماذا تريد؟

- لا يخرج سؤال كهذا من كاتبة ذكية مثلك!

- أنا لا أحب اللف والدوران، أحب أن تكون العلاقة واضحة من البداية.

- الصراحة والوضوح ينجحا أي علاقة في الدنيا.

- إذن فلتكن صريحا معي.

- قرأت أعمالك ووجدت أنك تفتقدين إلى أشياء كثيرة في حياتك.

- من أنت لتقول هذا؟! أنا لا أفتقد شيئاً قط اطمئن، أنا لا أكتب إلا ما يتطلبه سوق النشر، أبحث عن الرائج وأكتب فيه.

- هذا خطأ.

- أعتقد أنني أكبر منك وأستطيع أن أميز الصحيح من الخطأ.

- من يعتقد أنه دائماً كبيراً ويظن حاله وصل إلى مرحلة لا يمكن لأي شخص أن يستطيع أن يصلها. فسلاماً على تفكيره، ولا يُنتظر منه شيئاً.

صمت للحظات.. ثم أردف:

- أشعر أن الكُتاب في هذا العصر يكتبون إلى أنفسهم أكثر مما يكتبون إلى الناس، وهذا جعلهم يقعون في سخف الثرثرة عن الحديث وما يدور في النفس، عندما قرأت لك قلت أنك ربما تشعرين بنا نحن الجمهور، نحن الناس البسيطة، ولكن حديثك الآن أثبت لي أن جميع الكُتاب يتاجرون بآلام الناس واحتياجاتهم، أنا لا أرى اليوم كاتباً كما كان في السابق يستطيع أن يضع فمه على أذن القارئ ويملي عليه ما يدور في حياته، يصل إلى تفكيره، وينفث عن خواطر قلبه، وخوالج نفسه. عشت متيقنا، ولا أزال مؤمناً أن الكتابة هي صلة بين كاتب يفهم، وقارئ يفهم أيضاً، وبمقدار هذه الصلة من القوة والضعف، تُحدّد قوة الكاتب من العّلو والإسفاف.

قاطعته وأنا في قمة غضبي:

- هل تعطني درساً في الكتابة؟

أجاب بعد أن امتلك زمام نفسه:

- أنا أقل من أن أعطيك درساً، أنتِ أكبر مني، وتفهمين أكثر مني، وهذه فضفضة أشكرك على سماعها، وأستأذنك الآن، كي أرحل، شكراً على مجيئك.

رحل رحيم وشعرت أنه صفعني صفعةً على وجهي.. أنا التي لم يستطع أحدٌ أن يرفع عينه في وجهي، رحيم أجلسني أمامه لا أستطيع أن أفتح فمي، ذهبت إلى بيتي وأنا محملة بهموم لا أعرف من أين جاءت، كنت أريد فقط أن أنهي جدال الحديث وأغلق باب الإعجاب.. وأكسبه كصديق كما كنت أفعل مع أي شخص قبله، لماذا حدث كل هذا ولماذا فشلت فيه؟، هل عامل السن هو السبب؟ أي

أننا كلما نكبر في العمر نصبح أقل مرونة وأكثر صلابة، لا نقوى على استقبال أي نقد ولا غيره، أعتقد هذا فكلما نكبر.. تكبر معنا مسؤولياتنا ومتطلباتنا بطريقة طردية، فتحت آخر ما كنت أكتبه، وشعرت أنني أحتاج إلى إعادة صياغته مرة أخرى، أحتاج لأن أكتب عن الناس وللناس، أحتاج هذا أكثر من حاجتي إلى أموال أجنيها من الكتب.

وانقطعت رسائل رحيم وتوقفتُ عن انتظارها، كنت أباشر عملي في الجريدة بانتظام وبعدت عن كتابة المقالات وتركت أيضاً الكتابة في بحثي الجديد، كنت في حاجة ماسة إلى أن أعيد صياغة تفكيري وصلتي بالمجتمع، وقررت النزول إلى الميدان والجلوس على المقاهي لأشعر بما يريدون أن يعبروا عنه، اشتريت كتباً كثيرة لأقرأ من جديد، وكل هذا لم يكن بالشيء الجيد.. فمنذ فترة وأنا بعيدة عن الميادين وكل علاقتي بالشارع هو الذهاب إلى مقر الجريدة فقط، ونادراً ما أنزل لأتسوق إن كانت مرة في الشهر في إحدى المتاجر الكبيرة ومنها إلى البيت، وفقط. صدمت عندما علمت بأمر صديقاتي القدامى وكل واحدة منهن لديها الطفل والطفلين ويباشرن عملهن بشكل جيد، كل هذا أثر في نفسي بشكل كبير.. وفاقت فترة توقفي عن الكتابة إلى ما يزيد عن التسعين يوماً.. كل هذه الأحداث كان لها صدى سيء في نفسي، وشعرت أمي بما أعانيه فجاءتني في إحدى ليالي الربيع تخبرني أن الورد الذي تزرعه في شرفة المنزل أزهر.. وأنني لا زلت مُغلقة على نفسي لا أرى الشمس فأُزهر. وأكملت أنها ذهبت اليوم لزيارة أم رحيم لتواسيها في ابنها الذي سيذهب لقضاء خدمته العسكرية، فسألتها عن حالهم وأجابت أنهم في أبأس حال لأنها ستفقد ابنها العائل للبيت.

لا أعلم لماذا أصبح شبح رحيم يطاردني في كل حياتي.. حتى في كتابتي التي لم أتوقف عنها يوماً منذ أن صادقت القلم، إلا أنه منذ أن ظهر ذلك الرجل وأنا

لا أستطيع أن أمارس حياتي بشكل طبيعي كما كنت عليه، كانت أمي التي لم تقرأ كثيراً في حياتها ولم تتنصب مناصب أكثر من أنها مراجعة في سجل المحاكم القريب من البيت أكثر رؤية ودراية مني في أمور الحياة، سألتها في مضض من هم؟ حكت لي باستفاضة البلغاء عن أبيهم، الرجل الذي توفي في حادث أليم وهو ذاهب لعمله.. كان رحيم صغيراً في أول عام له في الجامعة، وكان مروان لم يتعد الاثني عشر عاماً.. وعلى الرغم من ضيق الحال إلا أنهم انعكفوا على أنفسهم مغلقين أبوابهم، متطلعين إلى الانغماس في الحياة العامة ليكبروا ويحققوا ذاتهم، ولم يفشلوا؛ بل إن رحيم تخرج من الهندسة كما رأيت بتقدير كبير، مع أنه الممول الوحيد للبيت وعمل بأكثر من مهنة وحرفة يدوية لإعانة أمه في شؤون البيت، سألتها إذا كانت رأته هناك؟ قالت أنه كان يكتب شيئا بمفكرة صغيرة طوال الوقت.. وبجانبه آلته الموسيقية.. ولم تعرف أن تنطق اسمها، فضحكت كثيراً من طيبتها وعفويتها، وقلت أنه ربما يؤلف لحنا جديدا.. أو ربما يكتب لحظات الوداع قبل أن يغادر الحياة المدنية.

***

تلقيت في صبيحة ذلك اليوم إخطاراً من دار النشر يطالبوني فيه بسرعة تسليم الكتاب الجديد لأن الوقت أصبح ضيقاً، وكنت لم أنه فيه سوى ربعه بالكاد، اعتذرت لهم في رسالة نصية عن مشاركتي في المعرض القادم.. لأفاجأ بعدها بطلبهم فسخ العقد الذي بيننا، لا أعلم لماذا أصبحت الدنيا هكذا فجأة.. لا أعلم قمة اليأس والإحباط الذي جاء عن غير موعد! لم تمر علي فترة في حياتي أسوأ من تلك، ولا سواد أكثر من هذا، وانعكفت والاكتئاب يغمرني قرابة الأسبوع لم أذهب حتى إلى العمل.. فطلبت إجازة لعشرة أيام.. قررت فيها السفر إلى إحدى المدن السياحية لأنفس عن نفسي بعض الشيء، وحزمت أمتعتي بعد أن استقريت

على الذهاب إلى مرسى علم، وحجزت فندق الإقامة وتذاكر السفر وها أنا ذا لا ينقصني إلا أن أودّع أمي وأترك لها بعض الأموال.. فدخلت غرفتها ووجدتها متمددة على فراشها لا تقوى على أخذ النفس.. وتعاني من رعشة في كل الجسد.. فصعقت لهذا ووقف تفكيري لبعض الوقت حتى طلبت الإسعاف وسرعان ما كنا في المستشفى.. كنت من بالغ توتري قد نسيت حقيبة يدي التي بها الأموال. ولم أستطع تركها بمفردها هنا.. لم يكن في جيبي سوى الهاتف فاتصلت بأقرب شخص إلى المشفى وهو رحيم، كان كل شيء بسرعة رهيبة.. ولم يتأخر في المجيء، أنهينا أوراق الدخول لحجز غرفة واستخدمت كل علاقاتي في توفير غرفة خاصة، كانت لحظات صعبة، مريبة، انقباض قلبي وهاجس الفراق الذي أخشاه حال كونها آخر ما تبقى لي في الدنيا من متاع والمتكئ الوحيد الذي أستند عليه، جلسنا ننتظر ونتابع انتظام نبضات قلبها.. أنا ورحيم، ولم يتحدث إلي على الرغم من أنني جواره ملاصقة له، ولم أقدر أنا أن أفتح أية أحاديث، كان ملتزم الصمت.. وكأن لديه سلام داخلي، بعض الحين والآخر يمسح بيديه على لحيته وشاربه، ويعود إلى وضعها جواره.. كان بداخلي شيء يريد أن يشكره على موقفه النبيل، لكن كان كبريائي.. أو خجلي لا أعرف أياً منهما كان يجبرني على ألا أتحدث، لقد قسوت عليه في آخر لقاء بيننا وكلماتي لم تخرج بشكل لائق، والآن عندما احتجت إليه وجدته أقرب من أي شخص اتصلت به، أول شخص حضر ليقدم يد العون على الرغم من كثرة الناس الذين عرفوا الخبر، إنها دلالة الصفاء الداخلي وطيب القلب، اكتمال النمو ونضج العقل، أعتقد أنه يريد إيصال شيء ما بصمته الوقور.. شيء أفهمه جيداً.. هو لا يريد أن يستغل الموقف البالغ في صعوبته في الحديث معي.. لا يريد أن يتطرق إلى ذهني أنه حضر هنا ليتحدث معي، مرت ساعة من الوقت لا يفعل من شيء أكثر من أننا ننظر إلى سقف المشفى، حتى قطع هذا الصمت مجيء أمه في كرب شديد، كأنها تفقد أختا عزيزة، والحقيقة أنهما أكثر من الإخوة، هما صديقتان تكملان

بعضهما وأنا أحسد صداقتهما.. فلم أخرج من هذه الدنيا بأكثر من نفسي، هذه الصفعة التي تلقيتها جعلتني أفكر ماذا لو ذهبت أمي؟ هل سأبقى بمفردي؟.. هل سأجد من يقف جواري مثل أم رحيم، وهل سأجد أحدا يتألم كما هي تفعل الآن؟ ترفع يدها عني كانت تحتضنني مثلما تحتضن الأم طفلا رضيعا، كانت تقويني مثلما يقوي القائد جنوده في معركة شديدة الشراسة.. كانت تفعل ذلك بحب لا تنتظر من ورائه شيئا وليس لها مصلحة في ذلك، إنه الحب للحب ومن أجله تحيا النفوس وتقوى السواعد وتترابط الأخوة، وكنت حقاً كالطفلة تتعلم النطق والكلام من جديد، وانتظر ثلاثتنا في ممر المشفى إلى خروج الشمس التي ألقت بضوئها علينا، فذهب رحيم لصلاة الصبح وذهبت أنا وأمه إلى الاطمئنان على حالة المريضة، فكانت كما هي، وعرفنا من التقرير الطبي أنها مصابة بداء السكر وأن البنكرياس لديها لا يعمل بكفاءة، كما أن نبضات القلب غير منتظمة بسبب ضعف عضلته، كانت صدمة، فكرت بها كثيراً في أيامي القادمة.. لا أستطيع العيش بدونها لا أستطيع البقاء.. لم يمر أبداً في خاطري هذا الشعور، على الرغم من خلافنا الدائم إلا أنني شعرت أنني أفتقد جزئاً كبيراً من حياتي، عاد رحيم من صلاته يحمل لنا بعض الساندويتشات وعلب العصير.. لم أكن أكلت شيئا منذ أمس ولم أتذكر أصلاً الطعام، بعد أن حلفت أمه بكل الأيمان التي تعرفها قضمت بعض اللقيمات.. وشربت العصير، وبعض المياه، ولم يمر كثيرٌ من الوقت حتى طلبت منه أمه أن يرحل إلى البيت فاعترض أشدّ الاعتراض وألحت عليه.. فطلبت منه أنا ذلك فلربما نحتاج شيئاً من المنزل حتى وافق بعد مشقة وعناء.. وخطا نحو درج الممر بخطىً ثابتة.. تتحرك معه كل أعضائه وإيماءاته.. وتحرك شيءٌ ما بداخلي.

ما أصعب تلك المشاعر وما أشدها لحظات في المشفى وأنت ترى المرضى بمختلف أشكالهم وألوانهم، هنا لا فرق بين أبيض وأسود.. صغير أو كبير، رجل أو امرأة، هنا الكل يترقب، الكل ينتظر، وعندما يحضر طبيبٌ ما يرتدي زي الأطباء

سرعان ما يلتف حوله الجميع في توجس ورجاء.. إنه الأمل.. الأمل الذي يبقينا على قيد الحياة.

أفاقت أمي قبل أذان الظهر بقليل.. وانتظمت نبضات قلبها اليافع، كانت فرحة لا أستطيع نسيانها أبداً ما حييت، وكان الموقف الأول في حياتي الذي أعتمد فيه على ذاتي.. بل إنه الموقف الذي غيّر في نظرتي للحياة عموماً.. تحولت النظرة من تطلع إلى أعلي والنظر إلى ما بعد عشرين عاماً إلى النظر فيما بين أيدينا، وما هو بيننا ولا مانع من النظر إلى الأمام ولكن ما في أيدينا يستحق أن نهتم به.. لأنه الآن.. الحاضر.

انتظمت في عملي وعدت للكتابة من جديد، ولكن بمشاعر جديدة، قررت في ذاتي أن أكتب عن المرضى.. عن الأحياء الأموات، عن الشارع المصري، ووجدت أنه أرض خصبة للكتابة الإبداعية.. تعجبت كيف يكتب الناس أدب الرعب.. ويتركوا الشارع المصري! هل وصل نجيب محفوظ إلى نوبل إلا عبر الحارة المصرية وما يدور في أزقتها؟

كنت كل صباح أعاتب أمي بمزاح لأنها أفسدت علي سفريتي، وتضحك كثيراً عندما أقول لها: لماذا فقط عندما نويت السفر وحجزت كل شيء.. ما السنة أمامك طويلة والأيام كثيرة!

أحببت ضحكتها أكثر من أي وقت مضى، وتقربت منها أيضًا أكثر من أي وقت مضى، لم تكن هذه المرة الأولى التي تمرض فيها أمي.. ولكنها كانت المرة الأولى بعد وفاة أبي، إنها لحظات مؤلمة عندما تشعر أنك الرجل والمرأة.. في آن واحد. لماذا نطلب المساواة بين الرجل والمرأة ونحن بداخلنا أضعف من أن نكون الاثنين معاً، هناك أشياء أُختص بها الرجال.. وهناك أفعال هي للمرأة فقط!

ولأنني الآن الرجل في ذلك البيت - لأن أمي لم تعش في حياتها سوى دور الأنثى

- أحببت أن أشكر رحيم على موقفه النبيل.. أشكره رجل لرجل.. كما هو العُرف عند الرجال. فكرت أن آخذ بعض الهدايا وأذهب إلى منزلهم، ولكني تراجعت عن الفكرة قبلها بقليل.. ولم أرد أن أعزمه في نفس المكان الذي يحبه خشية أن يكون أرتبط معه بذكريات سيئة.. فقررت أن أرتب موعدا في نادي الضباط بشارع عبد العزيز آل سعود، وهو دائما ما أتردد إليه وأحب الجلوس هناك على ضفاف النيل، وأرسلت إليه رسالة نصية بالميعاد والمكان.. وكان ليلاً لأنني منذ فترة لم أخرج ليلاً، تعمدت أيضاً أن أذهب باكراً لأدفع أنا مصاريف العشاء.. وانتظرته، كنت أحمل بعض الأوراق من كتابي الجديد لأعرض عليه الفكرة.. وانتظرته كثيراً ونفد صبري، حتى جاء متأخراً ساعة عن الموعد، كان يرتدي قميصًا أسود يشبه لحيته وشاربه اللذان يعتني بهما كثيراً، وكثيراً ما يهذبهما.. كنت أحب رزانته وثقته بنفسه، سعيه الدؤوب نحو الكمال، ولو أنه مدرك أن في هذه الدنيا ليس هناك كمال.. ولكنه يكفيه أنه يسعى، قمحية بشرته.. أصابعه طويلة قليلاً، عروق يديه بارزة.. فمه بسيط، عيناه سوداوان، كلها كانت أشياء مثيرة.. لكنه لا يدركها، أعتقد ذلك.

- كنت أعلم أنك ستأتي.

قلتها وتذكرت أنها كانت كلمته عندما دعاني.

- هل سأذم مرة أخرى؟

قاطعته:

- رحيم؛ أنا لا أريد الحديث في أي شيء مضى، من فضلك أنا هنا لأفتح صفحة جديدة، لن أنسى أبداً موقفك معي في مرض أمي.

صمت للحظات ثم سأل:

- كيف حالها الآن؟

أجبت بلهفة:

- تسألني عنك كثيراً؛ طلبت مني أن أهتم بك!

- تهتمي؟ كيف!

قالها وهو يرفع أحد حاجبيه لأعلى.

- لا أقصد الاهتمام. ولكنها طلبت مني أن أكون لطيفة لأنك إنسان طيب.. وهكذا.

ابتسم رحيم.. وأكملت:

- هي تعلم أنني وبالبلدي مثل الحمارة لا أعرف المجاملات ولا الوسطية، أقول كلاما وأحيانا لا أفهمه، قد يأتي مثل الرصاص. وقد يأتي لطيفاً على حسب الشخص الذي يجلس أمامي.. وعلي حسب الموقف.

قاطعني:

- المفروض أنك كاتبة ماهرة تعرفين خطورة الكلمات وتدركين أهمية معاني المفردات.

- أعلم ذلك. وأنا هنا من أجل أن أقدم اعتذاري.

نظر رحيم لأعلى وسرح في القمر.. كان مكتملاً كعروس أنيقة والنجوم حوله يزفونه.. والنيل جوارنا يستمع إلى شدونا، كان راكداً بطيئاً لا أعلم لماذا! والتفت رحيم إلي ناظرا في عينيّ وقال بنبرة ترتفع تدريجياً:

- لماذا يجب علينا دائماً نحن معشر الرجال أن نكون لطفاء؟ لا ننفعل؛ لا نكترث إلى كلامكن الذي يكون كالرصاص، على الرغم من أننا لو فعلنا ما تفعلنه لقامت قيامتنا وجاءت كل المنظمات الحقوقية تترافع، وأصبح كلامنا تحرشا لفظيا ومعنويا، حتى المجتمع بتامته لن يسلم، فيقال عليه مجتمع ذكوري متعفن، لماذا دائما الرجال هم الذين يتقبلون الاعتذار.. ويجب عليهم أن يتقبلوه، وإلا أصبحوا

جهما.. جافي المشاعر عنفاء ساديين.

لم أستطع أن أتمالك نفسي من الضحك، فخرجت ضحكة راقصات كأننا في ملهى ليلي؛ وقلت والضحك يملأ فمي:

- لأنه يجب علينا فعل ذلك ولأنكم يجب أن تتقبلونا كما نحن. لأنكم ببساطة لا تقدروا على العيش بدوننا.

نظر إلي ثم ضحك.. وأخيراً ضحك.

أكملت:

- رحيم أنظر إلي؛ نحن ببساطة نبحث عن كل شيء، نفكر في الدقيقة ألف مرة، مزاجنا يتغير في اللحظة مائة مرة، لا تأخذ كل كلامنا على محمل الجد. لأنك ستتعب كثيراً، افعل كما فعل نزار عندما قال: "قرأت كتاب الأنوثة حرفاً حرفاً.. ولا زلت أجهل ماذا يدور برأس النساء". لقد لخص كل شيء.. فهم هذا الرجل حقاً المرأة، فهم أنه لا يمكن له أن يفهمها.

قال رحيم بنبرة يأس:

- ولماذا تحاولون فهمنا؟

- لأننا ببساطة هذا دورنا في الحياة. كما قلت لك نحن نبحث عن كل شيء.

جاء الطعام وأكلنا وشربنا الشاي الذي يحبه رحيم.. ونحن نتحدث في وعن كل شيء، ما أثار شغفي في شخصيته هو أنه دائما يريد حلا قطعيا وجذريا لأي مشكلة تواجهه حتى لا يتبقى ذيول تعرقل طريقه، لا يرضى أبدا بأنصاف الحلول، أتذكر مقولته لي: تعلمت في كلية الهندسة أن أي شيء غير واضح في البناية قد يعرض سلامتها للخطر، لابد أن يكون كل شيء دقيق ومدروس.. حتى لا تنهار في أي وقت وحتى يتسنى لنا القيام بها لأعلي نقطة ممكنة، وكذلك السلم الموسيقي، أي نغمة

غير واضحة قد تجعله يشذ عن المألوف وتخرب المقطوعة التي من الممكن أن تكون أجمل سيمفونية.

وهذا أمر حسن، الوضوح والصراحة ونزع الخلافات من البداية، تقوم العلاقة على بناء أساس سليم وواضح، يجعلها متينة لا اعوجاج فيها ولا ميول، إنما التراكمات والغضب المدفون الذي يتزايد طبيعياً مع الوقت بأثر رجعي يجعلنا كما كرة النار التي تتحامل كثيراً من الهواء بداخلها، ولكن عند لحظة ما ستنفجر وتتطاير متناثرة أشلاؤها محدثة أضرارا بمن حولها، كما أنها لا يمكن لها أن تعود مرة أخرى إلى سابق عهدها.

اعترفت لرحيم أنني كنت أحب رسالاته الصباحية ومنذ أن انقطعت وأنا أشعر أن شيئا ما ناقص في يومي، كما أنني أحب أدب الرسائل وفرحت كثيراً برسالته الورقية التي لازلت أحتفظ بها إلى الآن، ووجدته أيضًا يهتم بأدب الرسائل وقرأ كثيراً فيه على الرغم من قلة حظنا الأدبي منه، فلم يُكتب في هذا اللون كثيراً، ولكنه كان ولايزال بهجة لا يدركها الكثير.. (مارسيل بروست، فروغ فرفراد، فلاديمير نابوكوف في رسالته إلى فيرا، ديكارت وإليزابيث، كاوباتا وميشيما، تولستوي وغاندي، غوركي وتشيخوف رغم أنها بين صديقين ولكنها أيضًا كانت ممتعة، وأيضاً كافكا وميلينا، رسائل سارتر إلى سيمون دي بوفوار).

أما من العرب فتحدث قليلاً منهم عن أدب الرسائل.. مي وجبران اللذان استمرت رسائلهما لقرابة العشرين عاما، مصطفى صادق الرافعي في أوراق الورد، رسائل غادة السمان وغسان كنفاني، والعقاد ومي.

والحقيقة أننا نفتقد إلى تلك البهجة عندما يصل المظروف بعد شوق الانتظار، نقوم بفتحه، رائحة الورق الزكية.. حرارة الكلمات ودفء الحروف. على قدر ما

ساعدتنا وسائل التواصل الحديثة من تطور، إلا أنها أماتت فينا أشياء كثيرة، منها التجمعات العائلية والمقابلات العامة.. أصبح كل شيء سهلا الآن.

وعادت رسائل رحيم؛ لكنها كانت ورقية هذه المرة، قرر مع ذاته أن يكتب يومياً رسالة ورقية ويرسلها مع بائع الجرائد، الذي يزودني بها صباحاً، كانت فكرة بسيطة أدهشتني.. أفرحتني على الرغم من بساطتها إلا أنها كانت تصنع يومي، الأجمل من ذلك كله أن رحيم كان يحاول إسعادي بأي شيء، لا أستطيع وأنا كاتبة أن أكتب كل يوم رسالة أدبية تتكون من مائتي أو ثلاثمائة كلمة وأرسلها بشكل متتابع ويومي.

الابتكار يحرك "دينامو" الأفكار للظهور أفضل، والسعي وراء الكمال، الشيخ في المسجد يبتكر في تجديد خطابه والقس في الكنيسة، المهندس في المصنع، والطبيب في المشفى، المزارع في الأرض كلٌ يبتكر على حد عمله وبقدر ذكائه وفطنته.. على قدر رؤيته للحياة. إنه أيضاً الأمل.. الأمل في أن نبقى الأفضل، جميع من ذُكر في الابتكار يأمل أن يقدم كل ما لديه، يأمل في أن يكون الأفضل، يأمل أن يجد نتيجة أفضل.. الأمل حياة لمن يريد الحياة..

وجرت الأمور كما لم أفهم شيئا، كانت تأتيني أفخم الهدايا، لا يمر شهر إلا وعلى مكتبي هدية جزلة، لم أشعر تجاه أي هدية بسعادة وغبطة قدر رسائل رحيم، ربما لأنها خرجت من قلبه بصفاء فلمست قلبي بأمان وحب، كان الباب مواربا له وعرف كيف يتسلل من بين جنباته، عرف كيف يأخذ مساحة من التفكير والاهتمام.. ويسرق بعض المشاعر.. على الرغم من العائق، الذي لا يعنيني أنا في شيء ولكن خوفاً على مشاعره.. إنه عامل السن.

وهذا ما رأيناه بعدما علم من علم بأمر علاقتنا، لقد حظينا بوابل من السباب والإهانة لم يأخذه حمار.. ولكني حظيت بالجانب الأوفر من الشتيمة، كل هذا

لم يعد يعنيني في شيء، بل على العكس.. ولا أعلم لماذا كلما قال أحد: لا؛ ازددنا قرباً وتفهماً، ولكنّا في مصر نعاني من مرض انعدام الخصوصية، ولو دقق الناس في علاقتنا التي لا غبار عليها ما تفوهوا بلفظ قط، لو علموا أنني ما اهتممت به إلا لأنني وجدت فيه الوسطية والعقلانية والبعد عن عقد وسواس الذكورية الهمجية، والسعي وراء ممارسة السلطات الافتراضية التي في المجتمع.. ما قالوا ذلك عنا.

ولكنّا التزمنا الصمت، لا نرد على أحد أياً كان حتى فاجأني في تلك الليلة أنه يريد أن يتقدم لخطبتي ويطلب ميعادا يقابل فيه أمي، كان الموضوع مباغتاً؛ ليس في مشاعره التي ربما اتفقنا عليها.. ولكن على الرغم من أننا الآن أقرب اثنين لبعضهما، إلا أنني شعرت بالخوف، وكان ذلك طبيعياً لأنني لا أريد أن تفسد علاقته بأمه وأصدقائه، كنت أعلم أن أمه تكره فيّ عدم انشغالي بالحياة المنزلية، لا أستطيع صنع الطعام ولا القيام بالأعمال المنزلية، حاولت الهروب وتأجيل الفكرة.. ولكني كلما ابتعدت اقترب.. وكلما اختفيت ازداد تعلقا وتمسكاً.. وازداد حبه فوق حب المحبين حباً.

فَشلت كل المحاولات، ورأيتني في أنانية تامة إذا ابتعدت وغلقت هذا الباب.. كيف أدخل حياته وأعلقه بي إلى هذا الحد ثم أخرج وأغلق هذا الباب.. كيف يكون هكذا وبأي وجه حق أفعل ذلك! أتقرب منه ثم يكون هروب مفاجئ بلا رحمة، لست بهذه الوحشية، ولا أفعل مثل هذه الأفعال الحيوانية، لم يكن أمامي سوى أحد الطريقين وكلاهما مؤلم، إما أن أكمل وفي هذه الحالة سأنال الكثير من الاستهزاء والسخرية، واما أن أبتعد وفي هذه الحالة سأكون في أنانية وحيوانية.. والوقت ضيق جداً حال كونه سيغادر إلى معسكر التدريب بعد عام من الإعفاء المؤقت.

***

كان موعد لقائنا، وذهبت إليه في المكان الذي يحب فوجدته واضعاً آلته الموسيقية جواره دون أن يعزف.. ينظر إليها كأنه ينظر إلي؛ قال بنبرة حزينة أنا أودعها فابتسمت ابتسامة توطئ حدة اختناقه، قلت بصوت حاولت أن يتخلله الفرح: وأنا لم أحب أن تكون الكمان هي فقط التي تودعها فجئت وأنا أعلم أنك تخونني معها، هي ضرتي ولكن لا تقلق.. نحن الاثنتين متفاهمتين لن تحزن أحدنا إذا خنتها مع الأخرى.. فضحك أخيراً بصوت عالٍ وضحك القمر المكتمل في دورانه، وضحك النهر بموجة عالية، وكأن السماء والنهر والمكان اتفقا أن يسعدانا فقام وقبل يدي.. بخجل شديد، واستحييت من نفسي أن أبتعد عن هذا الرجل الذي جاء هنا ليودع آلة خشبية، وإذا كان يفعل ذلك مع قطعة من الخشب فكيف سيفعل معي وأنا روحه ومحبوبته وكل ما يملك كما يقول عني.

شعرت بكل هذه الأشياء من حولي ترفعني لأعلى وتحلق بي بعيداً عن دائرة النفاق والمقت، وفهمت أن سعادة المرأة ليست في سؤددها ولا مجدها، ولن تكون أيضاً بمنصب الرجل وقوة مركزه.. بل بالحب الذي يضم روحها إلى روحه ويبث عواطفها في قلبه، ويجعلهما الاثنين عضواً واحداً من نسيج الحياة.

ومضى الشهر دون أن يكترث أي منا إلى أي شيء؛ فقط قررنا معاً ألا نلتفت لشيء إلا لراحتنا ونبحث عنها، وحاولت جاهدة أن أكرس تركيزه في حياته الجديدة الوعرة، وألا يتلفت إلا إلى معسكره وحياة الجهادية.. إلى أن رحل.. ورحل معه جزء مني، فودعته أمه بالدموع وأمي لم تستطع أن تحبس الدموع.. صعب أن تعرف رحيم الإنسان ولا تحبه.

***

عزيزتي الجميلة ريم،

تحية طيبة وبعد.. فهذا أول خطاب مني بعد أن تسلمت مكان خدمتي الجديد، وإني هنا في مكان غريب أكاد أشعر أنني في بلد آخر.

كل من حولي هنا غريب عني، الأكل والشراب.. ومكان الاستحمام، إنها ليست آدمية على الأطلاق، كل شيء هنا نفس اللون، الرمال والخنادق والدبابات والأسلحة والمركبات، حتى الجنود هنا جميعهم يرتدون نفس الزي، ويحلقون شعورهم بنفس القَصة.

أنا هنا لا أجد إلى الراحة سبيلاً، لا أستطيع النوم، هذا السرير متهالك لا يصلح لشيء، وليس عليه مرتبة.. وإنما بعض الأشياء المترهلة التي قضى عليها الزمان واستهلكت.

لا أعلم كيف سيكون عام كامل هنا.. ولكني سأصبر على أي حال حتى أتفرغ لحياتي العامة.

كوني بخير دائما.

راسليني على العنوان الذي سأتركه لكِ على الظرف.

****

رحيمي..

لا حرمني الله من رنين كلماتكَ الدافئة وتقديرُكَ لما أُعاني حيال ابتعادك.. سلام الله على قلبكَ في مكانك البعيد وبعد..

كان سيسعدني أن تطمئن قلبي بكلماتك من هناك، ولكني الآن أنا قلقة عليك.

أريد أن أتعرف إلى تفاصيل يومك كجندي، كُنت قديما لا تؤمن بالجندية وحماية الدولة وخلافه قائلاً أن الكعبة المُشرفة حين فكَّر أبرهة الحبشي في هدمها قيل أن للبيت ربٌ يحميه، سأغترب أنا عن بيتي لأيام وشهور فقط لأحمي بعض الصخور والرِمال ونهر النيل والأهرامات؟

يُسعدني أنكَ أخيراً رضيت عن موقفك ووجودك كجندي في الجيش ينظر له جميع الناس كمثل نظرتي إليه.. بحب واحترام وإجلال.. أتمنى أنك تتناول طعامكَ بشكل جيد وأن تهتم بصحتك وكل شيء سيكون على ما يُرام..

أخبرني أكثر عن خُرافات أكل الثعابين والثعالب وخلافه مما يُقال عن ضُبّاط الجيش وما يواجهون في جيشهم.. أرجو ألا تكون تتعرض لمثل تلك الأشياء.. وإن كان يحدث يمكنك الكَذِب علي لكيلا أقتحم معسكركم ذاك لأهم أنا بِك..

لا تنقطع عن مُراسلتي مهما حدث..

سأنتظِرُ خِطابك القادم بِكُل شغف.

المُخلصة لك دائماً.

ريم.

عزيزتي:

سلام الله على قلبك الرؤوم، وصلني خطابك فجر أمس فكأنه خيط النجاة بعد ليلة خاط السواد حلكتها، أخذني بعيداً بكلماته التي اتخذت موضعها من القلب دون المرور إلى عقل أو عين، أو لسان، أو.. أو..

وبقيت ذكرى غريبة تغشاني في خلوتي، تداعب أحلامي التي بعثرتها الأيام في وادي الفراق تتخايل لي في أشكال وألوان.. لا أعلم أهو الحنين؟ أم..

ولكني أعلم يقيناً أنني أحِن إليك حنين الغريب إلى داره.. وأنتِ داري.

سأحكي لك عن تلك الليلة القحطاء الجدباء، خرجت لأتريض بعد محاولاتي المخفقة في النوم، وبعد أن أرهق سلك السرير ظهري ومزقه أشلاءً، كنت قد أديت خدمتي في هذه الصحراء اليابسة، وما أن وصلت الفضاء شعرت بالرمال تحتي تضطرب اضطراباً سريعاً في همس وخفوت، وأن الهواء على الرغم من سعة الفضاء أمامه يمشي متثاقلاً كأنما يبحث عمن يستند إليه..

وما لبثت تلك الطبيعة الصامتة حتى زمجرت، وعجّت، لتهُب زوبعة تضرب الأرض بيديها فتطير رمال الصحراء في كل مكان، وتهز المباني القديمة المتآكلة المتهالكة، أمّا الآلات فتحدث عطعطة كأنها حرب.

وكنت قريباً من مكان خدمة صديقي صلاح فلجأت إليه وتوهمت أن الخندقة التي يخدم بها مقفرة موحشة ليس بها أحد.. ولمع البرق فرأيته بداخلها جاثياً على ركبتيه خاشعاً باسطاً يديه إلى السماء، يدعوا الله في قنوت واستكانة بدعوات جميلة يرددها بصوت شجي مُحزن. فخُيل إلي رغم انعدام الإضاءة والمصابيح أني أرى وجهه مشرقاً متلألئ في هذه العتمة الحالكة، فالتفت إلي وقال: أخشى أن يصيبنا مكروه.. إنني أدعوا الله أن يبقينا سالمين.

أثر في نفسي هذا المنظر تأثيراً شديداً وجلست على مقربة منه أسمع حديثه

وأستكشف سريرة نفسه.

وأخذ هو في الحكي دون أن أطلب منه، ولم أنتبه إلا عندما ذَكر ابنه الذي تركه دون الأربعين يوماً وزوجته التي أخذها عن حب دام لأكثر من عشر سنوات، يجمعان القش على الفرش حتى اكتمل العش، وأذّن المؤذن حي على الزواج.. ثم ما لبث حتى دمعت عيناه على فراق ابنه.. فأخذ منظره هذا من نفسي مأخذاً شديداً.

ما حسدت أحداً في حياتي على نعمة قط.. كدت أحسده على زوجته التي طال صبرها أكثر من عشر سنوات وهو الذي يبكي رحمة وإشفاقاً وشوقاً على ابنه.

تدرين عزيزتي ما معنى ذلك؟

إنه الرضا والسعادة والسلام النفسي، الذي لا يستمد بهجته ورواءه من القصور والمباني العالية الفخمة، والستائر والفرش الحرير، وانما من الحب الخالص الصافي والود المتين.

وكذلك سيكون شأننا حبيبتي، سعداء مغتبطين.. قريباً سآخذ الإجازة التي وعدوني بها.. سآتي إليك فور وصولي، أحضن يديك وأُقبّل عينيك لأزيل شقاء ومرارة هذه الأيام.

رحيم.

***

رحيمي..

سَلِمتَ وسَلم الله قلبك من كل سوء.. وبعد؛

سأُحاول اصطناع التماسك كما تفعل أي امرأة قوية ترجو زوجها شهيداً فتشُدُ من أزرِه وتُقوي عزيمته وتتكاتف معه في محنته..

لا تبتئس.. ستكون بكُل الخير.. أنا أدعو الله كُل ليلة بذلك.. وأنا موقنة بالإجابة لأنه سبحانه وتعالى لن يرضى لعبد كسرتين!

أنت قوَّتي وقوْتي وعزَّتي وعزائي.. ورَجُلي الذي لا يهاب ولم يرتد الخوف قلبه الذي أحببت.. لذا أنا لستُ بِقلقةٍ عليك.. أنا فقط أخشى ما أخشاه أن أعود منبوذة مغرورة تخاف الرِجال وتدَّعي القوة وهي لا تمتلك منها مثقال ذرة..

أتذكُر حين اتصلتُ بِك يوم سمِعتُ أخبارا عن اعتقال عِدة شبان في منطقتك وخال لي أنك منهم.. حاولت الاتصال بِكَ قَبل تِلكَ المُكالمة مِراراً وتكراراً وفي كُل مرة أخاف ألا تُجيب فتكون منهم فينخلع قلبي عليكَ حسرة.. وحين اتصلتُ بِك ورددت فاطمأن قلبي، عاد وارتبك لأني لا أدري بأي وجه أُحادِثك بعد شِجارنا قبلها.. ابتدعت حُجة عشاء العمل إياه - الذي لم يتخلل الحوار فيه أي حديث عن أي عمل - لأراك فترتاح عيناي الساهرتين من فرط الإحساس بالذنب

يا ذنبي الوحيد الذي اقترفت ويُعاقبني عليه القريب والبعيد والرائح والغادي.. وسيظل معقودا في رقبتي رغم ما بيننا من مشاعر.

لا عليك.. فقط كُن على يقين أنني هُنا أخوض حربنا الخاصة ضد المجتمع والأهل والجميع.. لأجل عينيك.. فقط عينيك.

وأُكرر لا تنقطِع عن مُراسلتي مهما حدث.. أُحِبُك حد ما أُواجِه من عناء.. في انتظار عودك الحميد.

المُخلصة لكَ دائمًا،

ريم.

***

عزيزتي: ريم

سلم الله قلبك من كل سوء..

لا أزال أشعر حتى الساعة بجمال تلك الأمسية وذلك العشاء الذي تزعمين أنه للعمل، رغم قلة حديثنا وقتها إلا أنه كان رائعاً مسلياً، وقد احاطتني عاطفة غريبة متنوعة في ألوانها.. مختلفة في شكولها، فكأنها الحب والخوف، السعادة والحزن، لا تحسبي حبيبتي أن عينيك فقط الساهرتان.. وانما كانتا عيناي تراقباكِ وإن لم تراكِ، كنت أذود النوم عن عيني ذوداً لأنني لا أستطيع أن أكون راضٍ عن نفسي، ولا هانئا في تختي إن غفت عيناي في ساعة لا تجدين أنتِ فيها إلى الراحة سبيلاً.

حتى يشقشق الفجر فأنتظر الصباح وأنا ممسك بهاتفي أنتظر ولو رسالة منكِ، لا ينبغي أن أقول هذا ولكني أعدُّ الساعات واللحظات يا ريم، وأنتظر بشوق عظيم رؤياك.

لا تقلقي فأنا بخير طالما أنتِ بخير.. طالما يصلني كتابك وكلماتك.. أدامك الله على نعمة تملأ القلب حباً وحناناً.

ولكني أحن شوقاً إلى تلك المنطقة التي لا تنام أبداً، إلى المقاهي الساهرة على صوت أم كلثوم، والشباب حولها يتسامرون، والشيوخ ربما يلعبون.. بالأمس كنا قريبين، كان يجمعنا شارع واحد، لا يكدر صفونا شيء سوى الباعة الجائلون بأصواتهم المزعجة عندما يفصلون حديثنا الهاتفي الذي يطول كثيراً، واليوم بيني وبينك أميالا كثيرة.. لا يرن صوتك العذب في جنبات قلبي، لا تلمس يدي يدك، ولا أتنفس رائحتك، ولا تضيء ابتسامتك الفاتنة ظلمات نفسي.. لقد التقيت هنا أصدقاء ورفقاء كثيرين، ولكن لم يغنِ لقاؤهم عن لقائك، ولم أشعر في وجوههم المكفهرة ذلك الأنس الذي دائماً أجده فيكِ، فأصبحت أشعر بما يشعر به الغريب عن وطنه.

متى يا الله تنقضي أيام غربتي!

قد أحزنني كثيراً ما تكابدينه من قلق وآلام من أجلي.. ولو نظرتِ في قلبي لرأيتِ حزناً يفيق ويكثر.. ولرأيتِ أيضًا حقداً منك وعليك، لأنك تعيشين في ذلك المكان الذي شهد سعادتنا وهناءتنا.. مكان بنينا على أرضه أحلامنا وآمالنا.. انظري حولك ريم، كل ما حولك يذكرك بحبنا، أما أنا فكل ما حولي غريب عني.

سأكون شجاعاً كما أمرتِ حبيبتي، وسأكرس كل جهدي في إقصاء أي عقبة تقف في طريق سعادتي بك، اكتبي إلي كثيراً وحدثيني عن كل ما يحدث حولك ويحيط بك صغيراً كان أو كبيراً، حتى يتسنى لي أن أجد لذة القرب منك على بعد المسافات.

اجعلي من ذلك الحب الكبير عوناً على تحقيق المقاصد والغايات، فحبك هو الذي يحييني.. وله أعيش وأبقى.

رحيم.

****

رحيمي،

سلام الله على قلبكَ الذي أحببت وبعد..

كيف أنت؟ وكيف هو صديقك ذا الزوجة الحبيبة؟ والعساكر والضُباط ورِمال الصحراء وشمس البيداء وأجواء المُعَسكَر هُناك!

أرجو أن يكون الجميع بخير.. فأنا ما دُمت يطلع علي صباح ويهل ضوء القمر وأنا على وجه الأرض وأنا أغمُرُكم بالدعاء.. على الرغم من أنني كنتُ لا أُبالي بأحوال الجُنود على الحدود كما الآن.. وتمر علي أخبار استشهادهم كأخبار عابرة عادية.. لكني الآن أصبحت أنضج.. ولا أنقطع عن قراءة الجرائد ومراجعة نشرة الأخبار التي كُنت أمقتها وبشدة.. أخشى أن يظهر نعي أحد منهم فيصيبك الحَزَن.. أو يظهر نعي عنك بصورتك الجميلة التي أرسلتها في إحدى المرات ولا زلت أحتفظ بها في حقيبتي فيُصاب قلبي في مَقتَل.

لا تنشغل بأخباري وتفاصيلي الصغيرة التافهة الآن.. حين تعود سأوافيك بأدق التفاصيل حتى وإن كانت عن حساسيتي المُفرطة للبُكاء هذه الفترة فيصيبني انكسار سن قلمي الرصاص الأزرق ذي النُجوم الذهبية باكتئاب حاد.

يا إلهي كم أنا حمقاء.. لا أطيق الانتظار حتى تعود فأُحدثك.. وتُكتَب كلماتي التي أخفيها عنك رُغماً عني.. بكل ما أملكُ من رغبة.. لست حزينة بقدر ما يأخذ التيه من روحي مآخذ يا عزيزي..

لكن ما أستطيع إخبارك به الآن خبراً غريباً ارتعدت منه أعصابي وتنادى له جهازي الهضمي بالتوتر.. وأشعر أن كل ما فات كان باختيارنا.. وما هو قادم أسوأ.. أنا على طريق وَعر أمتطي سيارة قديمة الطراز نفد منها البنزين.. والدتك حدَّثتني صباح اليوم هاتفياً وقالت أنها تُريد مُقابلتي..

هرَبت كلماتي اللعينة الآن.. وأناملي في حالة يُرثى لها.. لا أقوى على الكتابة يا صاح.. أرجو أن تذكرني في دُعائك.. تمنّ من كُل قلبك ألا يحدث ما تُراودني به أفكاري..

لا تنقطع عن مُراسلتي مهما حدث.. لا تُهمل في تناولك للطعام، وارتد سُترة تقيك برد ليل الصحراء..

المُخلصة لك دائمًا،

ريم.

***

عزيزتي ريم:

بعد التحية.. أمّا بعد؛

صديقي صلاح أصابته وعكة صحية وسافر بالأمس في إجازة ربما كانت مقررة لي، ولكنها لن تدوم لأكثر من أسبوع، أسأل الله أن يخفف عنه وعثاء سفره وآلام مرضه.

جميعنا بخير والحمد الله، المهم أن يكون الوطن بخير ويعيش الجميع في أمن وسلام، لا تنشغلي بقراءة الصحف فهي كاذبة، حتى وإن اصطفانا الله ورزقنا الشهادة - ونحن أقل من ذلك بكثير- فسيكتبون عنا كلمات لا جدوى من ورائها سوي ارتفاع نسبة المبيعات وتسويق للصحف والمجلات بانفراد الخبر. ليس لدينا إعلام ولا صحافة تروي الحدث كما هو وتسرده كما كان، وإنما يجتزئون ويقصقصونه ليلائم سياسة الجريدة.. جميعهم كاذبون منافقون.

اكتبي لي ريم كل كلماتك التي تخفينها، لا تخبئي شيئا ولا تجتزئي وتقصقصي مثل الصحف، اكتبي إلي كل شيء ولا تكوني من أصحاب الحيطة في الحب الذين يتخذون كل يومٍ حبيب، يقسمون بين يديه بأغلظ الأيمان أنهم ما فتحوا باب قلبهم لزائر قبله، إنهم يخشون أن يكتبوا بأيديهم على أنفسهم في يومهم ما يفسد عليهم أمرهم في غدهم، أمّا المحبين حقاً وصدقاً وإقراراً ويقيناً فما أغناهم عن ذلك كله، لأنهم يحبون فيخلصون فيقولون.. فيكتبون ما يقولون.

والدتي حدثتك وتريد مقابلتك، ما أسعدني بهذا الخبر.. إنني لم أقض في حياتي أهنأ من تلك الليلة لأني بت أتخيل - أمي وحبيبتي - معاً، جميل أنها تتصل بك وتتحدث إليك، إنها تريد أن تتخذك صديقة (فلا تهرب كلماتك الجميلة، ولا ترتعد أعصابك، ولا يتوتر جهازك الهضمي). املئي سيارتك بوقود المحبة واشحني

بطاريتك بكهرباء الأمل وقابليها ستجدينها نقية طاهرة، ووفية مخلصة، فتشي في عينيها عنّي، ثم اكتبي لي ما دار بينكما، لا تجعلي لليأس سبيلاً إلى قلبك حتى يجمع الله بيني وبينك.

دمتِ في خير وصحة وسعادة حبيبتي.

رحيم.

***

عزيزتي ريم..

كنت أنتظر أن يأتيني خطاب منك بالأمس فلم يأتني، أمريضة أنت؟ أم شغلك عني شيء كبير لا يسمح لكِ بمراسلتي؟ كيف صاغ القدر دربك؟ وكيف عصفت بك الحياة؟ اكتبي إلى في السراء والضراء، فقد بلغ بي العناء منتهاه، وانقطعت عن الناس جميعهم وجمعهم، فلم أعد أرى أحداً من أصحابي.

الحياة مظلمة في عيني، وأفتقد إلى انعكاس ضوئك في عينيّ حتى أعود أرى الدنيا كما كنت أراها.. أو كنا نراها معاً.

أخبريني هل قابلتِ أمي؟

ماذا دار بينكما؟

هل حدثت مشكلة ما؟

هل هي بخير؟

أخبريني أرجوك فليس هناك وسيلة للتواصل إلا بك، وإن القلق ينتابني ويغشاني في كل يومي. طمئنيني ولو ببعض الكلمات..

رحيم.

***

رحيم..

سلام الله على كل ما حطمته السنين لي من أمنيات.. وبعد.

اليوم وفي رثائي لآخر ما تبقى لي من أمل وبعد فترة لا بأس بها من الانقطاع عن الطعام والشراب وعن عملي وكتاباتي إليك أُناجي ما تبقى داخلي وداخلك من واقعية..

قابلتُ والدتك.. وتحدثنا بمنتهى الجديّة والحيادية عما قد يؤول إليه أمرنا فيما بعد.. وفي الحقيقة أن حديثنا صفَّد قدميّ التي كانتا فوق السحاب وأنزلهما منزل حق على أرض الواقع.

لا أُخفيك سِرَّاً أن حديثها آلمني.. لكنني الآن أفضل من ذي قبل.. فقد ساعدتني أن أنظر في شأننا من زوايا أُخرى غير زاويتنا العقيمة التي لا زالت تقحمنا في عالمنا الورديّ اللعين.

إذ كيف لشاب مثلك لا ينقصه شيء يُقرر فجأة أن يرتبط بامرأة مُعقدة تكبره بعدة سنوات مثلي.. لا يمكن ألا نكترث بنظرة المجتمع.. فهي التي ستحدد الكثير فيما بعد.. سينظر إليك الناس أنك شاب أهوج من كل بنات الكون لفتت نظره ثلاثينية خرقاء..

سيكبر أبناؤنا والجميع يهمس في آذانهم (ماما سرقت بابا الصغير من حياته وتقحمه تحت مسمى الحَّب في حياتها.. ماما تكبر بابا بعدة سنوات.. ماما امرأة جهول لا تُراعي عادات وتقاليد مجتمعها).

أنا ناضجة هوت في سهام الحب في ظروف غير مناسبة.. ناضجة حمقاء لم تُحسن التفكير.. ناضجة تعلق قلبها من غير حول منها ولا قوة.

أنا في غاية الأسف.. تقبل خالص اعتذاري.. لا أملك إلا أن أنصاع لأمر والدتك..

أرجو أن يتحسن صديقك (صلاح) ويعود إليك سالماً غانماً..

سلامٌ أخير.. لا تنتظر ردا.

تحياتي.

ريم

***

عزيزتي: ريم.

سلّم الله قلبك الرحيم.

قرأت رسالتك.. وإني فُجعت بمحتواها وما بها، رغم أنه ليس بالشيء الجديد علينا، لقد تعرضنا لأبشع من ذلك بكثير ولم تهتز فينا شعرة واحدة.

والآن ما الجديد فيما قالته؟

وما ذنبي أنا إذا كانت هي أمي، أنا أحبها وأحبك، ولا يمكن أن أغضبها ولا أغضبك.

رجاءً لا تشقياني بينكما فأنا في شقاء وعناء وآلام لا تشعران بها أنتما الاثنتان.

وما ذنب الحب أيضًا؟ لم نقرأ من قبل أن أحداً رفض الحب أن يأتي إليه لمجرد أنه وجد إنسانة تكبره عمراً!

إنني أراقب نفسي عن قرب وأراقب من حولي من بعيد، فأرى أن بيننا وبين الحب السوي والصلاح الحق بُعدّاً، سببه أننا قد نعرف الدواء ولكنا نجهل سُبل التداوي كما أننا لا نصبر على مطالبه.

كانت ستنا خديجة وهي أم المؤمنين أكبر من النبي محمد الآمين بكثير، هل نقص ذلك من خديجة أو محمد شيئا؟ وإنما إذا دققنا النظر فنجدها ربحت الدنيا والآخرة، وهي أم لأبنائه جميعاً عدا إبراهيم.

إن الجهل بالتربية السليمة، والتعلق بالأشكال الدنيوية والعادات والتقاليد، جعل العلاقات الاجتماعية في الحضيض.

لا تطفئي نار الحب بيديك فتفتر وتبرد وتتحول جمرتها إلى رماد. والحب كالطائر عزيزتي، لا حياة له إلا في سماء الحرية والرواح، والتغريد والتنقير، فإذا سجن في قفص القلب، تضعضع وتهالك. وأحنى رأسه يائساً..

إنني أعيش فعلياً في عزلة عن العالم حبيبتي، لا أنيس لي ولا سمير، حتى أنه إذا مرت بخاطري فكرة، أو اختلجت في نفسي خالجة، أو خفق قلبي في فرح أو حزن أو ارتياح أو انقباض، لا أستطيع أن أفضي من ذلك شيئا مخافة ألا يُفهم، أو يفهم منه غير ما أريد.. فلا أجد لي بداً إلا أن أكتمه في نفسي وأطويه بين أضلعي.

ألا تَرين بعد كل هذا يا حبيبتي أنني في أشد الحاجة إليك، وإلى بقائك جانبي، لتأخذي بيدي في ظلمات حياتي، وتخففي عني بعض همومي وأشجاني.

فهل يقدر الله لي أن أراك بين يديّ في عهد قريب؟

رحيمك.

***

لم يكن بالأمر السهل أن أنتزعه من أعماقي وألتفت إلى حياتي الخاصة بكل قوة وانطلاق وحيوية، لم يكن أمراً سهلاً على الإطلاق.. لقد كان (رحيم) أشبه بالسرطان.. تدخَّل في حياتي ببطء غير مشهود.. وتوغل إلى الحد الذي مكّنه من قلبي.. لقد تدرّج في فترة قصيرة من صديقي الصغير، إلى أعز أصدقائي، إلى شخص عزيز، إلى عزيزي.. ولم أمنعه ولو لمرة عن الاهتمام لأمري، لقد كُنت في طريق خاطئ وأنا في قمة سعادتي..

أصبحت الحياة بعد قراري الأخير قميئة لا طعم لها ولا لون.. خالية من الشغف واللهفة والبُكاء والدعاء الموجّه لأحدهم.. لقد عُدتُ وحيدة، كئيبة، مغرورة ترتدي نظارة شمسية تُخفي خلفها عينيها الذابلتين.. لا أُنكر أني كنت قد رجعت عن قراري لمرات ومرات وكُنت على وشك أن أضرب بوعدي مع والدته – لا سامحها الله - عرض الحائط ولا أكترث لما قالت وأعود للتواصل معه بحُجة الشيطان الذي كان بيننا ويمكننا معاً صرفه.

لكن كرامتي آلمتني مثلما أشعُر أنها آلمته.. تُرى كيف هو الآن!! هل واتته هواجس أني تزوجت أو مال قلبي لأحدهم مثلاً! لا أدري أي هذيان أقول وهو في منطقة محظورة لا تدلفها النساء.. ولا حتى الرِجال.

إذن ماذا هُناك! لِمَ لَمْ يلح علي إلحاحاً يطمئن قلبي أكثَر.. هل آلمه قراري وانزعج وقرر تطبيق مثل ذلك القرار أيضاً؟ لا لن يفعل.. هو ذو القلب الكبير الذي لا يستغني بسهولة.. لن يترك يدي لأسباب تافهة ابتدعتها والدته للتفريق بيننا.. أرجو أن يكون تفهّم موقفي دون أن يُقرر قرارات حمقاء كمثل ما فَعَلت..

اليوم وفي أحد الأيام التي يغلُب عليها الطابع الروتيني المزرى قد قابلت إحدى السافلات التي كانت تنتمي إلى فرقة (رحيم) الموسيقية والآن هي معنا في الجريدة وتعمل في نفس القسم الذي ارأسه، كانت تُحاول التَقَرُّب منه يوماً ما..

أتمنى ألا تأتي إلى مكتبي.. ساعدني يا الله.. لا أود أن أنفعل على حقيرة تهتم لأمر أحدهم لم يَعُد يهمني ولا يهمني إن كان يهمها أمره.. بل يهمني ولتذهب إلى الجحيم وإن دَلَفَت قدماها داخل باب هذا المكتب سأفعل بها الأفاعيل..

دخلت الفتاة ونظرت إليّ نظرة استهزاء بينما أصطنع الانشغال بأعمالي بالرغم من تركيزي التام الذي سلطته عليها من وقت دُخولها.. ألا إن الفتاة اتَّبَعَت كيد النساء الخاص بها وأغلَقَت الباب خلفها ليتسنّى لنا الحوار على انفراد.. بادلتُّها نظرات تهديد ووعيد من تحت نظّارتي.. وقدمَت نحوي الأُخرى في كُل دلال وقالت:

- صباح جميل أليس كذلك؟

فنظرت إليها باحتقار وقلت في حنق - لا أظُن ذلك.. ماذا هُناك؟ لِم أنتِ هُنا؟

ابتسمَت بملء فيها وأردَفَت - طلباً لإجازة.

نزعتُ نظّارتي وألقيت بها على مكتبي ووَضَعت قلمي الذي كنت أخرِج فيه طاقتي السلبية جانباً وشبكت أصابع يدي في مُحاذاة ذقني وقلت - غير مسموح لأياً كان هذه الفترة أن يحصُل على إجازات.

جَلَسَت المرأة في خُبث وقالت - أنا يجب أن آخذ إجازة مُدتها شهر على أقل تقدير.. فأنا سيُعقَد قراني وأتزوج خلال هذا الأسبوع.. وعُذراً لم أبدأ بعد دعوة البعض نظراً لأن مثل هذه المُناسبات قد تُحسَد.. لكنكِ بالطبع لا تحتاجين دعوة لزفاف شقيقتكِ الصُغرى.

ابتسمت في سخرية ووقفت في مكاني، اتّجَهت نحو باب المَكتب وفتحته مُشيرة إلى الفتاة – يُمكنكِ الذِهاب إلى المُدير العام ليُعطيك الإجازة التي تحتاجين.. أنا لن أتحمل مسؤولية إجازة كبيرة كتلك.

ضَحِكَت الفتاة ضَحِكة غطّت على كل علامات البُرود التي حاولت رسمها وأردَفَت – معذورة.

وغادرت المَكتب بكُل هدوء ودلال.. فأغلَقت باب الغُرفة بعُنف وجَعَلت أركُلهُ بقدمي حتى كُسر زُجاجه مما أصابني بجروح كبيرة في يدي وقدمي التي كنت أركل بها الباب.

قضيت في المُستشفى أياماً حتى تعافيت نسبياً.. ومن المستشفى إلى الشئون القانونية.. لخصم خمسة عشر يوماً نتيجة تهوري.. أو بالأحرى نتيجة حمقاء تتفنن الكيد.. بعدها واتتني حالة اكتئاب غريبة.. تمكنت مني بالفعل.. فجعلت مني أنثى لا تميل لأي شيء.. ولا ترتقي روحها إلا للخراب.. وحاولت التماسك لكني فشلت.. سافرت.. ولم أنتظر حتى أن أُعاقب وتركت عملي.. لا؛ لأني مُخطئة بقدر ما أنني أخشى على كبريائي من الخدش.

سافرت وكنت قد قررت أن أتناسى كل ما حدث لي.. فذهبت لإحدى محافظات ساحل البحر المتوسط لكن منظر البحر الجميل المُريح للعيون والأنفس لم يُنشئ في داخلي سوى دوامة بُكاء طويلة لم يقطعها إلا تليفون والدتي.. تقول أن كهرباء المنزل انقطعت وأنها خائفة، وبالتالي انقطعت معه إجازة سفري.

وحينما وصلت كانت والدتي على خير حال ولم يكن هناك أي انقطاع لا كهرباء ولا غيره، وكانت آمالي وأحلامي تجلس على الأريكة.. روحي رُدَّت إلي حين رأيت (رحيم) يجلس مع والدتي في انتظاري حين عَلم بأمر عودتي..

يا إلهي تغير شكله كثيراً.. هذَّب لحيته وشاربه وكان شعره قصيراً.. للوهلة الأولى لم أعرفه.. بل ودخلت إلى غرفتي المواجهة له سريعاً وأغلقت بابها بشدة كنوع من أنواع التذمر.. هُنا دَخَلَت والدتي التي لم تتحسس الأمر وعنَّفتني آمرة إياي أن أخرُج لمقابلته.. فخرجت على مضض.. أو أفتعل كونه على مضض.. وجَلست بكل نرجسية أنظُر إلى إطار مُعلَّق على الحائط وأعبث بأصابعي.. فبعد

أن كان قد بدأ في حديثه سكت وعاد بظهره إلى الخلف عاقداً كلتا يديه وحاجبيه في حنق.. فما إن سكت حتى نظرت إليه في عِتاب وحادثت أمي قائلة:

- إذن أنتِ بخير. بل الجميع بخير.. وأنتِ حادثتني منذ ساعات قائلة أنكِ كِدت تموتين من الخوف والقلق.. وأغلقتِ هاتفكِ وتركتني أنا ينهشني القلق وأعود بويلاتي من هُناك بين الـ ترى ويا هل ترى.. جيد.. سأُسافر لمرة أُخرى بلا عودة وأنا مطمئنة أنكِ بخير ولن أرضخ لتأوهاتك.

قاطع حديثي بلهجة إزعاج قائلاً:

- ومن ذا الذي سيسمح لكِ بالسفر؟

قلت بحزم:

- أنا سيدة قراري.

فنظر إلي في حنق وقال:

- أنتِ قررتِ ما قد قررتِه بدون العودة إلي.. بدون أن تعرفي رأيي الشخصي.. العلاقة مبنية على طرفين.. لا يحق لأحدهما إنهاؤها دون العودة للآخر.

صحت في شدة:

- لست أنا من قررت.. بل والدتك فعلت.. ولا سبيل أمامي سوى الموافقة.. لقد طعنتني في كرامتي بخنجر مسموم.. جعلت مني مسخا لم يعد يستطيع رؤية وجهه في المرآة.. لأول مرة أشعر أن تقدمي في العمر كان عائقاً في هذه الفترة من حياتي.

ردت أمي:

- عيب يا ريم؛ إنها صديقتي قبل أن تكون أما لرحيم.. والخلافات تلك تحل

ويكفي كل هذه الغوغاء، إنكما أكبر من ذلك بكثير.. إنها معذورة حال أنها ليس لديها إلا رحيم في حياتها. وأنها لا تقصد إطلاقاً ما فهمتيه. وأنا تحدثت معها.

قال رحيم وعلامات الاستفهام تملأ وجهه:

- و ما شأني أنا... ماذا اقترفت من أخطاء؟

قلت بتلقائية مفرطة:

- ومن أنت ومن والدتك! أنتما شخص واحد.. لكما في هذا الأمر بالأخص قرار واحد.

فردّ بعقلانية:

- كان يمكنكِ الانتظار حتى أعود.. وإن لم أُحدِث تغييرا جذريا في تفكيرها إذن يمكنكِ الابتعاد.

عدت أرد بنفس عقلانيته:

- لا. لم ولن أكون بهذا الرخص لأُبعِد شابا عن جنة والدته.

فحاول استعطافي واستحضار ما فيّ من مشاعر قائلاً بصوت ناعم:

– عزيزتي. هل من فرصة أخيرة؟

أعدت التفكير مرارًا وتكرارًا ثم قلت بحسرة ممزوجة بعناد:

- لا.

وبعد أكثر من يوم تضاربت فيه أيامي بين الرِضا وعدمه.. وبين أن تغمرني الأفراح لكوني أول من فكّر المحبوب زيارتها وتتقاذفني الآلام لأني صددت وصاله وأحبطتُ آماله.. وبعد أن حاولت محادثته لأيام وكانت كرامتي وكلام والدته يقفا عائقاً في طريقي وإذا بي أحادثه قائلة:

أنتَ لا تعلم مقدار الألم الذي أشعُر به لأنك لست قريباً. أنا آسفة كل الأسف عما بَدَرَ مني.. وأُقسِم أني لن أجعل شيئاً يعوق طريقنا مرة أُخرى.. أرجو ألا تأخُذ كلامي على محمل الجِد.. فقد كُنتُ أُحاول الامتثال لكوني كبيرة لكني فشلت.. ذلكَ لأنك مصدر فشلي الذريع.. وكُلُّ ما تبقى لي في الدُنيا.

فإذا بها والدته التي تقفُ خَلفَ سماعة الهاتف والتي صرخت بي قائلة:

- أين هو ابني الآن! أجيبني ..أين ذهب؟

وقفت في حالة يُرثى لها كما لو أن القِطَّة أكلت لساني همهمت بعدها:

- صدقينيـ..

وقبل أن أُكمل حديثي قاطعتني قائلة:

- لن أُصدقكِ مهما قُلتِ. ولا أُريد إجاباتٍ مُبهمة.. أين هو ابني!

هُنا خرجت عن شعوري صارخة:

- وما أدراني؟! إن كنت أعلم ما كنت لأتصل به هُنا.. ماذا تُريدين مِنَّا؟ ما ضير أن يُحِب ابنك امرأة تكبره في العُمر؟ ما هو الجُرم الذي اقترفناه لتُعاقبي كلانا بهذا الشكل؟ يمكنكِ اختباري كيفما شئتِ للتأكُد من مدى كوني صالحة لابنك.. مع أنك لا شأن لكِ بالأمر.. لكن لا تُـ..

أغلقت الهاتف تلقائياً وحين اتصلت مرة أُخرى لم تُجِب.. وحين كررت الاتصال أُغلق الهاتف.. مسكينة سجينة القيل والقال والكلام العقيم الذي لا يُسمِن ولا يُغني من جوع.. لكنِّي وإن حاولت فعل شيء فليكن الشيء الذي يجعله سعيداً.. الذي لا يجعله يتركني ويترك روحه ها هُنا مُعلَّقة لا هي ميتة ولا هي في الحياة.. أخشى عليه أن يذهب إلى مُعسكره مرة أُخرى مُشتت التفكير فيُصيبه الأذى.. أرجو ألا يكون قد عاد إلى هُناك.. أرجو أنه الآن في الجوار لم يبتعد..

حادثني (مروان) أخوه وقال إنه يعلم مكان رحيم، "لقد سمعته يتحدث إلى يوسف صديقه وقال أنه سيزوره".

وعلى الفور حادثت صديق طفولته ليُعاتبني على ما فعلت وبدون معرفة (رحيم).. وبعد تمثيل بالبُكاء والندم دام لأكثر من دقيقة اعترف لي أن (رحيم) مُقيم لديه في بيته حتى يحين موعد عودته إلى المُعسكر ليبتعد عن طريقي أنا ووالدته وأمدَّني بالعُنوان واتفق معي على طريقة آتي بها إلى البيت بدون أن يعرف (رحيم) ويهمّ بالرحيل..

فاتفقنا على أن أحضر في نفس اليوم في السادسة مساءً في مقهى مُعيّن.. لم يكُن مكاننا الخاص لكن آمل أن يؤدي الغرض على أكمل وجه.. وسيكون هو في صفي ويعمل على إرضاء الطرفين.. فخرجتُ من مقر عملي في الثالثة عصراً وذهبت إلى أقرب مركز تجميل وصفَّفتُ شعري ووضعت عدة أقنعة لوجه تصلح لعدة أغراض للبشرة.. ثم ذهبت إلى المنزل وتناولت غدائي واعتكفت في غُرفَتي لأكثر من ساعة حتى كِدتُ أتأخر على ميعاد اتفاقنا.. حيث ألقيت بكامل ملابسي على سريري لأنتقي منها أكثرها مناسباً لمثل ذلك الموقف.. وبالنهاية ارتضيت فستانً أسود أنيقا.. ذا أكمامٍ طويلة.. ولم أضع أي مساحيق تجميل عدا الكُحل.. لا لأظهر أكثر بؤساً بقدر ما كان وجهي مُضيئاً من الأقنعة على نحوٍ راق لي وسيروق له.. وتركتُ شعري القصير ينسدل على كتفيّ لأظهر كم أنني بريئة أُعاني ابتعاده.. بدلاً من الفرحة التي ظهرت على وجهي حين علِمتُ مكانه.. ووصلت متأخرة على الميعاد بربع ساعة.. لكنه كان توقيت جيد.. إذ لم يشعُر رحيم بالأمر.. وما إن رآني حتى توقف عن التهام طعامه ومسح فمه بمنديل.. وعقد حاجبيه وكلتا يداه عِند جلوسي على الكُرسيّ المُقابل له.. وانتظر مني الاسترسال في الحديث.. فتنحنحت بابتسامة أسف وبدأتُ الحديث قائلة:

- لِم توقَّفتَ عن تناول طعامك؟ أكمله.. علَّك جائع.

- و منذ متى وأنتِ تهتمين لأمري؟ أنتِ الآن آنسة تعرف سبيل الرحيل.. تبحث عن مستقبل آخر في مكان آخر بعيداً عن الجميع.. اشتقتُ إلى ريم.. التي كانت تلامس قُربي متى ابتعدت.

- وها أنا ذا هُنا لأُخبركَ أني صرفت النظر عن أمر السفر. وسأظل هُنا بجوارك.. لأني في حاجة إليك. حتى أن والدتك اعتقدت أني أعرف مكانك الذي اختبأت فيه.. وحادثتها.. وحاولت التمسك بعلاقتنا أمامها.. إلا أنها لم تُتِح لي الفرصة.. لكن لا يهُم.. أنا اعتذر مِنك.

- أسفكِ غير مقبول. أنتِ خدشتِ كرامتي.

- وكيف يمكنني إصلاح ما أفسدت؟

- وحدكِ تعرفين كيف تصلحينه. حتى أنني لا أستطع.. لا يمكنني حتى تخمين طُرقكِ الخاصة.. فهي اختصاصك.. أم أنكِ ما عُدتِ تعرفين كيفية إرضائي!

هُنا شعرت بعبراتٍ على وشك الهطول.. فنظرت له نظرة ضَعف يملأها الحنين.. مما أربكه.. وما زاد ارتباكه كان حين قلت وقد لَوَيت شفتي إلى الأسفل..

- أنا آسفة.

لم تكن تلك نظرات رحيم لي، ولم أعتد عليه كذلك، شعرت وكأن شيئاً ما قد تغيّر فيه، تسلل بداخلي خوفٌ عليه من الدخول في موجة الاكتئاب التي عانيت منها في الفترة الأخيرة، أحسست بمعاناته والضغوط التي وضعناه فيها أنا وأمه ومعسكره وبعده عن الموسيقى. ماذا هناك أكثر من ذلك؟

تأكدت عندما قام من مقعده وانسحب بعدما أردف:

- أفضل الجلوس بمفردي. وما لبث حتى تحرك خارج المقهى.

نظرت إلى يوسف الذي ظل يترقبه دون أن ينطق بحرف واحد ثم بادلني النظرة وقال بكلمات متقطعة:

- دعيه. سيعود.

وطال انتظارنا.. ولكنه لم يُعد.

***

عرفت رحيم، ذو نفس عالية لا تكترث للمصائب والدواهي والضغوطات، مهما كان أمرها كبيرا أو عظيما؛ شخص لا يلين بسهولة، بل يزيده مُر النكبات قوة وصبراً .. كأنه يأبى له كبريائه العنيد وترفعه المجيد أن يوافي حظه من الحياة سهلاً سلساً لا تعب فيه ولا مشقة، هو يحارب في طريقه ويقاوم مرارة الأيام حتى ينال ما كسبت يداه، هكذا اعتادت نفسه العفيفة التي تشبه الليث بين السباع، لا تمتد عينه إلى فريسة غيره، ولا يهنأ له طعام غير الذي تجمعه أنيابه ومخالبه، وما فعلته ليس بهيناً ولكني كنت مغلوبة على أمري، فماذا كنت لأفعل!، عرفت من صديقه يوسف في تلك الليلة أنه وبعدما عاد وجده يحتضن الكمان بين ذراعيه كأنه يحتضن محبوبته.

سأله بسخرية:

- ماذا هناك هل تقيم علاقة معها؟

لم تتحرك عضلات وجهه لتعبر عن شيء. بل كان حزيناً من يوسف على فعتله الأخيرة..

حاول معه أن يخرجه من تلك الحالة التي ألمت به.. فأخبره أن حتى الكمان هجرته.

فازداد يوسف حزناً على حزنه..

كانت آخر جملة سمعتها من يوسف تلك التي قالها رحيم:

"أستاذي في معهد الموسيقى أخبرنا ذات يوم أن الكمان هي زوجتك الثانية المدللة؛ إذا غبت عنها يوما هجرتك وتدللت عليك ولا تعطيك من نفسها شيئاً إلا إذا جلست تصالحها لفترات من الوقت، ولا ترضى أبداً بالقليل".

شعرت من كلام رحيم أننا جميعاً بما فينا الكمان دخلنا في شخصه إلى أبعد حد وجميعنا أثقلنا عليه ونريده أن يعود دون أن يقدم أحدنا شيئا.

سافر رحيم إلى المعسكر وسافرت روحي معه إلى هناك..

ويبس ما بيننا، وضاق بي الهجر، وتقطعت سُبل الوصال.. انصرفت إلى شجرات كُن لي الحياة بعينها، أعرفهن ويعرفنني منذ زمن بعيد.

جلست أستظل بظلهن الحاني على ضفاف النيل أسترجع نفسي الغريبة.

هو رحيم ذلك الرجل الذي وُلد في الحياة مراراً.. هل آخذه بذنب أمه؟ وما ذنبه إذا كانت أُمه! هي لم تلد إلا رحيم الجسد - الجزء الطيني - الذي جاء من الأرض؛ ليفنى في الأرض.. أمّا أنا فأحببت في رحيم الأجزاء الروحية السماوية والتي بالطبع لم يكن لأمه شأن فيها، بل هي مُكون كما قال لي ذات مرة من مصائب الدنيا. أتذكر إذ التقينا على غير موعد بعد انتهاء دوامنا فنجلس جوار الجالسين تحت ظل الشجرات لا نقل شيئاً في أساليب الحديث ولا يأتي الكلام إلا عندما ننهض في طريق العودة، كلٌ منا إلى منزله (أمي جاءت بالجسد وتكفلت الحياة بولادتي وتربيتي مراراً وتكراراً).

أتذكر تلك الكلمات رحيمي، أوحشتني جداً وافتقدك، بحق غيابك عني افتقدك.

تلك الأحاديث التي أتذكرها الآن بمحاسنها وأتشوق إليها تشوق الرضيع إلى حضن أمه هي التي كانت تعذبني وتروعني، روع السجين في قبضة قفص الإعدام..

وهي التي طالما ملأت صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير.. لقد أخطأت في آخر مرة ورميته بكلمة مقفلة لا منفذ منها ولا مخرج، كانت شفتاه تسّباني وعيناه تترجاني وتعتذران. ولكني لا أقصد رحيمي الإساءة إليك أنت، ولا المعنى الذي وقع منك أنت، بل على معنى وقع من أمك، نعم ليس لك ذنب ولكنك تشبهها كثيراً، لم تأخذ من والدك غير شيئاً..تباً لك.. ولكنك أوحشتني أيضًا.

أفقت من وجع الذكريات الذي حلّق بي بعيداً على صوت بائع الجرائد.. منذ فترة لم أشتريها بسبب رحيم، قال لي ذات مرة أن كل أخبارهم كاذبة.

ابتعت واحدة ونظرت طويلاً حول المانشيت الرئيسي الذي يتوسط الصفحة الرئيسية (ثلاثين شهيداً إثر تفجير منطقة عسكرية في وسط سيناء.)

***

الجريدة العسكرية:

أدانت القوات المسلحة بشدة الهجوم الإرهابي المجرم الذي استهدف مجموعة من العسكريين شمال سيناء.

وأعربت عن تضامنها الكامل مع شهداء أبنائها شعباً وقيادة في أعقاب هذا الحادث الإرهابي الذي أسفر عن سقوط عدد من الشهداء والمصابين.

وجاء البيان شديد اللهجة أن تنظيم داعش وأترابه من المنظمات الإرهابية، يواصلون استهداف أمن واستقرار شعبنا، واختبار إرادتنا، وصلابة عزيمتنا، في مواجهة مشروعهم التدميري. كما أعلنت حالة الطوارئ القصوى، ورفعت حالة التأهب إلى الدرجة الأولى.. تمسكاً بسياسة المواجهة الشاملة، والوقوف بصلابة أمام أي محاولة للمساس بأحد أبنائها ضباط وعسكريين وقادة. واطمأن السيد رئيس الجمهورية والقائد الأعلى للقوات المسلحة على حالة المصابين.

حفظ الله مصر وشعبها وجيشها.

***

عزيزي رحيم:

فكرت كثيراً قبل أن أكتب لك رسالتي هذه، ولكن وجدتني وأنا على فراشي أتقلب لا أستطيع النوم، كما لا أستطيع القيام لأباشر عملي.

رحيم أنا لا أستطيع أن أفعل شيئا من دونك، لقد استطعت يا عزيزي بل يا حبيب نفسي بل يا أنا.. أن تتملك على كل شيء بي، استطعت بإنسانيتك لا بل بكبريائك وعزة نفسك أن تمسك يدي وتكتب ما يشعر به قلبي الآن من جروح، ومعاناة، وألم، ولا يصح أن أقول ذلك.

كتبت كثيراً ثم انقطعت عني، كنت أنتظر بفارغ الصبر أن يأتي أحد حاملا رسالتك، بعدما حدث من أمك وأنا عاذرة كلامها، ومتقبلة رأيها ولكني كان يجب علي أن أثأر لكرامتي ولو قليلاً، وأعتقد أن ذلك لن يضرك شيئاً، أعلم أنك تخفي الكثير من الأشياء في نفسك كأسرار.. وأحاول أن أفتش عن كل ما فيك، أريد معرفة كل شيء (حبيب نفسي)، أكرر أسفي وقلة حيلتي، وجئتك ولم تقبلني.. وها أنا ذا بين يديك، أرجو ألا تقسُ علي هكذا. فالقسوة لا تولد إلا قسوة.. ولن تأخذنا إلا إلى الهلاك، وأنا أكره ذلك كراهية أن تؤخذ مصر منا، هل تقبل أن تؤخذ مصر منا؟ كان يجب أن تغضب ولا أقول في ذلك شيئا.. ولكن تغضب كما غضبت أنا.. أنا أعاتبك الآن.. لأنك بمثابة شيئاً كبيراً لدي أحبه وأحترمه، وإلا ما عاتبتك.. إن شيئاً من الغضب في أحد الطرفين يلزمه شيءٌ من الغضب في الطرف الآخر ليحدث التوازن.. وها قد حدث كل شيء، إذن ما الداعي لكل هذا.

أنتظر رسالتك القادمة على وهج من النار..

زودني يا رحيمي.

ريم.

***

عزيزي المخلص دائما رحيم.

سلام الله على قلبك الكبير، وبعد..

لم يصلني خطابك الذي انتظرته كثيراً.. وانتظرت كلماتك التي تبرد تلك الغصة التي تعتلج في صدري ويضيق بها قلبي، شعرت بما كنت تشعر به حبيب نفسي وعانيت بما كنت تعاني منه، وأنا هنا أقف حائرة لا ملجأ لي إلا أنت، أدعو الله لك في كل صلاة، بأن يردك إلينا سالماً غانماً.. أفتح رسائلك القديمة وأفتش فيها عنك.. أفتش في كلماتك عنك.. ويا ويلاه ياهو على تلك الذكريات، لم أجد سوى الشوق والحنين إليك، أعزيكم ونفسي والوطن على ضحايا الإرهاب، الغادر، القاتل، وأكدّ جاهدة في الاطمئنان عليك ولا أجد سبيلا إليك إلا الكتابة لك فقط، كنت تقول أني زادك في رحلتك، الآن أدركت بُعد المشقة وقساوة الفراق، سامحني يا رحيم إن كان ذلك سيرضي كبريائك سأذهب للاعتذار لوالدتك أيضًا، أعتذر على شيء لم أفعله.

حقاً لم أفعل شيئاً سوى أني أحببتك حبا لم يحبه محب لحبيبه قط، فهلا عفوت عني، وأقول ذلك بلا تردد، أخذتني حماسة الفتيات وتدللت عليك، ولكني لم أتخل عن دوري كخادمة في حبك وجارية في محراب عينيك.

طمئني عليك رحيمي، طمئني فبعد مثلك صعب كالبعد عن النوم، كالبعد عن الماء.. الحياة من دونك مملة شاقة مهلكة، لا أعلم كيف تقف الحياة على الأحباء ولكن مجرد التفكير في الحبيب يوقف كل شيء أمامك، الحياة قصيرة.. قصيرة جدا وأدركت خطأي فهلا عفوت، أكررها هلا عفوت.. رحيمي أنتظر رسالتك، أنتظرك عند حافة النهر.

المخلصة لك دائماً، ريم.

***

وانتظرت وأصابني الخوف.. انتظرت كثيرا شيئاً يتغير، أفتش في صندوق البريد، أهاتف يوسف صديقه، أحاول بكل السبل ولكن دون جدوى، أتذكر كل المحادثات، كل المعارك التي خضناها معاً، أتذكر كل شيء وأدمع، إن فكرة وجود رجل في حياة الأنثى هي كفكرة الكمال، إذا كان يفهم معنى الرجولة الحق، كنت أستغرب كل الغرابة من النساء اللاتي يرفعن دعاوي للخلع لأسباب غير قوية، وبأبسط الطرق يهدمن أسرة ربما شقيا معاً كثيراً حتي يغلق عليهما باب واحد، كنت أتعجب كل العجب عندما أجد امرأة ذات جمال وبهاء تخلى عنها زوجها وتزوج بأخرى، إن فكرة بناء أسرة وإنجاب أطفال بغرض الاستقرار وتقديم نماذج نافعة للمجتمع بعيدة كل البعد عنا في مجتمعنا، ليست موجود في ثقافتنا، أصبح الزواج وسيلة لتفريغ الشهوة، والنزوة، ولا شيء آخر، وإذا دققنا النظر سنجدها لحظات فردية، لا تتعدى شيئاً من الوقت ولكن الباقي هما الفردان، الحياة لا تتمحور في علاقة جنسية ولا أهواء غرائزية، وإنما في اشياء إلهية، هناك ما هو أكبر من ذلك بكثير، والرجل الشرقي يحب التملك، سأتزوج من فلانة لجمالها، هو لا يريد الزواج للاستقرار، وإنما للتملك، الجمال سيذهب مع العمر.. وتبقى الروح والأخلاق، والمحبة التي هي في الأساس ما تتمحور عليها العلاقة وأساسها، وأحد أعمدتها.

وتمر الحياة دون وجود شيء يعطيها معنى، توقفت عن كتابتي للمرة الألف، والسبب أيضًا رحيم.

***

كرم الله الزواج لفكرة الزواج الرئيسية، وهي تقديم أفراد نافعة للمجتمع، وضيق الله منافذ الطلاق، والخلاف، الخضوع للشهوة، والعاطفة، لأن العاطفة تتقلب وتتغلب، والنفور يأتي ولكن يلزمه التريث، لأنهما إذا تريثا زال النفور

ولاحت الخلافات، إذا كانا يحبا بعضيهما سيبقى الحب والمودة.. قال تعالى: وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً.

ويشير الله بهذا أن الزوج قد ينقم من زوجته شيئاً وهو غافل عن محاسن فيها، وينظر إلى ما كان منها بقلب صافٍ ومحبة ورحمة ومودة، فلعله يرجع عن نفوره، ويؤثر بقاءها، أما عن قول الحق: وأخذن منكم ميثاقا غليظاً. هذا دليل على حرص الدين الإسلامي على الاستمساك بالزوجة، والوفاء بالوعود، فإن كان لابد من الطلاق فطلقة واحدة عن طهر، لاحتمالية الرجوع، وتزول لحظة الغضب، وأما في الدين المسيحي فقد كرمت الكنيسة الزواج وأعدته الوحدة المركزية للمجتمع المسيحي، كما أنه يعتبر من الأسرار السبعة المقدسة في الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية، فإذا كان الزواج بهذه القداسة في مختلف وشكول الحياة، فلماذا نعقد الأمور في خلافات؟ ولماذا كل هذه الحالات من الانفصال، لقد زادت كثيراً الأعوام الماضية، إن غياب الوعي المجتمعي، وتقاعس المنظمات الدينية، وغلاء المعيشة غير المبرر من الحكومة أدى إلى كل هذه الإرهاصات التي اعتدنا رؤيتها في بلادنا، كما أن بُعد المؤسسات الحقوقية عن تقديم حلول لهذه المشكلات وغرز البذور السليمة أنتج تهتك الأسر وانحدار الأخلاق، وانحدار الذوق العام، إن كل هذه المشكلات تؤثر بشكل كبير على الإنتاج في البلاد بل وكل شيء فيه، الشباب هو عمود الأمة التي تتكئ عليه.. فإذا أنبتنا شباباً ذوا أخلاق عالية وهمة كبيرة محبون للحياة.. زاد ذلك على اقتصاد وإنتاج بلدنا المنشود، وأنبتنا جيلا يستطيع أن ينهض بها ويأخذ بيديها إلى بر الأمان.

***

كنت على النيل بالقرب من الورود التي زرعناها معاً في إحدى الليالي مكتملة القمر.. والليل يئن في بعده أنين مفارق في سكرات الموت، والقمر يعلن عن ميلاد اكتماله، كان شتاء تلك الليلة غريبا مخيفا، مع غياب ونيس وحشة الليالي، الذي اعتدت أن تحكي له ما جرى في يومك وما تخطط له في غدك، إذا شعرت أن الدنيا كلها عليك.. تجري عليه، تتكئ على كتفه.

تقدم الطب إلى حد أنه يمكن له أن يداوي الآم القلب وأمراضه، لكن مرض الروح إذا ذبلت من يداويها؟

جاءني صوت محمد عبد الوهاب من بعيد بنقاء واضح وهو متأثر بكلماته: "قالولي هان الود عليه.. ونسيك وفات قلبك وحداني"... وذهبت معه في الدندنة دون أن ألتفت من أين يأتي، ولكن يدا الشخص التي استقرت على كتفاي أفزعتني، ألتفت مسرعة وأنا أصرخ وكلي ترقب، من؟ ليضع رحيم يده على فمي. أغمضت عيني من الفزعة وأنا أرتمي في حضنه وأبكي، لم أنبس بكلمة ولكني ضربته في كتفه كثيرا بقبضة يدي.

قال بخفة دم معهودة لديه:

- صوتك جميل لـمَ لا أُلحن لكِ أغنية وتغنيها بصوتك؟

لم أكن أريد الكلام، كنت أريد فقط أن أنظر في عينيه، أتحسس ملامحه الغائبة عني، كنت أريد فقط أن أتنفس دفء روحه، أسترجع تلك الليالي التي غابت عني منذ الكثير.

- أتحدث إليكِ. لـمَ لا تغني؟، سأقوم بتلحين الأغنية؟

- أغني لمن ؟ لعبد الوهاب؟

- لا؛ لـرحيم.

ضحكت.

- أوحشتني جداً. لماذا كل هذا؟

- تقصدين كل ده كان ليه؟ عبد الوهاب؟

- أقصد خفة دمك لالا. ثقل دمك.

- أنا دمي ثقيل؟ حسناً.. سأعود إلى معسكري.

- لا. لا. لا.. أرجوك أنا افتقدك جداً.. أفتقدك بكل ما تحوي الكلمة من معاني الفقد.

- تعلمي؛ الجميل أنكِ لا تزالين تأتي هنا في مكاننا الذي نحب.

- الجميل أن آتي وأجدك هنا. عند اكتمال القمر.

- أنتِ القمر. والقمر أنتِ، ولا شيء هنا سواك، أنتِ النيل الذي ينبض بالحياة، أنتِ الوردة والزهرة التي تنبض بالدفء والحنان. وكل شيء يعطي للحياة معنى هو أنتِ.

- رحيم؛ أين اختفيت؟

- لم أختفِ، كنت في عمليات بعد الحادث الأخير، ولم أستطع المراسلة.

- علمت بها. وأحزنني الأمر أبلغ حزن.

- لقد اعتدنا رؤية هذه المناظر، اعتدنا حياة الجهادية، إن ما يحدث أصعب بكثير مما ينقل إليكم، إذا كانوا ينقلوا إليكم الموت فنحن نعيشه، ونراه. نشم رائحته.

- أحزنني جداً أطفال الشهداء. وزوجاتهم، رحيم أنا خائفة عليك.

- ريم؛ الخوف الحقيقي هو من ذلك المرض الحقيقي والسرطان الذي يعيش

بيننا، ما يسمى الإرهاب، أما عني فلن أكون أحسن حالا من الذين رحلوا. أقسم لكِ أن حقهم لن يضيع.

- تغير تفكيرك كثيراً.

سكت لحظة ثم سأل:

- أتحبينني؟

- ألا تعلم؟

- أنا اسألك.

- وانا لن أجيب.

ضحك رحيم بصوت عال ثم قال والضحك يملئ فمه.

- سوف تجيبي، أريد أن اتأكد إذا كان حبًا أم إعجابًا..

- حسنا؛ يقولون أن الحب يأتي مرة واحدة، والإعجاب يأتي على فترات كثيرة.

- ألا تفرقين بينهما؟

- ألم تقل السيدة أحلام مستغانمي؛ أن الإعجاب هو توأم الحب الوسيم؟

- لم تجيبي على سؤالي.

- لم آخذ فرصتي.

- إذن لا تفرقين!

- بل أكاد أجزم أن العواطف تتموه بأعجوبة.

- سيدلك قلبك عليه.. مخطئا جداً من ظن أنه بدأ على صواب!

- الحب الحقيقي لا يقبل المراهنات.

- بل يقبل؛ ولكن من يضحي بهذه المراهنات؟

- وهل تضحين بذلك من أجلي؟

- التضحية لا تكون للفرد، بل للجميع.

- ولكن الحب لا يقبل القسمة!

- لم أجرب التضحيات فيه من قبل!

- وأين ستجدين ذلك؟

- هي ستجدني!

- كل هذه التضحيات ولم تشعري بها من حولك؟ إنها تحيط بك.

- أنا أرى حولي غموضا.

- ولكن الغموض استطاع أن يخترق قداستك.

- إذن استطاع؛ فلمَ يسأل؟!

- إذن تحبينني؟

- أنت تعرفني أكثر مني.

***

كانت مفاجأة رحيم لي بمثابة ماء الحياة التي ارتوى بها عطشي بعد ظمأ طويل، بمثابة فتح قفص حديدي لطائر صغير حبس فيه رغماً عنه، تغير تفكيره كثيراً، وأصبح واحداً من هذه المؤسسة، تعلم الانضباط، هو الذي بدأ بالتيه في حياته، هو الذي فكر كثيراً قبل أن يقدم أوراقه.. ولكنه الآن يدافع عنها كما لو كان تربى منذ نشأته بين جدرانها، ليعطيها كل ما لديه، أحببته.. أحببته بكل ما فيه، أحببت هيئته بالزي العسكري، لم تكن إجازته طويلة هذه المرة وسافر مسرعاً، كنت أحب أن أهديه شيئاً في هذه الإجازة شيئاً يجعله دائماً يتذكرني، فكان الخاتم الذي ارتداه في إصبعه هو الغالب.. وطلبت منه ألا ينزعه مهما كلفه الأمر، هو يعشق الفضة، وطلبت منه كلما نظر في يديه يتذكرني.. وانتظرت خطابه.

***

عزيزتي الجميلة ريم:

سلم الله قلبك من كل سوء، وبعد، فإني لا أزال أشعر حتى الساعة وأنا أكتب هذه الكلمات بجمال تلك الليلة وأنا جالس بين يديكِ، ومنذ قدومي وفي كل لحظة ألمس خاتمك الجميل بيدي مخافة أن يكون طار سروراً وبهجة من تلك السعادة الحقيقية، وهي كل ما يتمناها الحبيب الحق، هي النعمة التي أشكر الله عليها لدوامها الذي أتمنى أن تطول ما دام في العُمر بقية. تعمدت أن يكون عبد الوهاب هو الذي يمهد لقائنا لما يتمتع به من فهم وذوق وخالجة وعزة وكبرياء في النفس.. ويعرف جيداً أدواته وطرقه التي يسلكها ليصل إلى قلب من يحب، كما تعمدت أن تكون "هان الود" هي الأغنية لما كان لها من أثر ومعزّة عنده.. لأنها وبعد مشكلة سافرت على غرارها زوجته إلى فرنسا وكتبت مقالا بعنوان (هان الود) فقرأه وذهب إلى أحمد رامي يشكو حزنه على ما كان منها وما وقع من أثر في نفسه على بُعدها، فتفهمه صديقه وشعر بما يشعر به فكتب القصيدة بنفس عنوان المقال، كتبها ولكنها تحمل مشاعر عبد الوهاب فغناها بمشاعر عاشق مستعطف.. فما كان منها إلا أن تعود وتنتظره في بيته ريثما يرجع من حفلته. كان حبهما راقٍ وفراقهما راقٍ وحياتهما تحمل الحب والود والصفاء.

حاولت أنتِ حبيبتي الكلام.. ولكني أعلم كل ما في نفسك، أعلم تأوهك، وقرأت في عينيك ما لم يستطع نطقه لسانك، قرأت ألم الفراق، ولذة الحب، وحيرة النفس، قرأت الدهشة، والسعادة، والسرور في الدمع المتلألئ، وكان الكلام أيضًا في نفسي محبوساً لا يستطيع الخروج. إن مشاعر الحزن والغضب تقتل كل ما هو جميل بداخلنا، تلعثم أفواهنا يطفئ فتيل البهجة والسرور. ولكن لا عليكِ فهذا لم يؤثر على حبي لك في شيء ولولا الخلافات ما استطاعت أنفسنا فهم بعضها البعض لأنها تطلعنا على جوانب الشخصية في كل شكولها وأحوالها. وإني أؤمن أن لغة

اللسان لا تكشف عما في القلب؛ لذا لم أستطع أن أعبر عما في نفسي من الوجد بكْ، والحنين إليك، ولكنك إذا لمستِ قلبي بأناملك ستعرفين مكنونه.. وتكشفين سروره، أنا أحبك يا ريم وأريد أن أحيا لك، أريد أن أتولى شأن سعادتك التي عاهدتك أن أتولاها لكِ. إن حظي في الدنيا قليل.. أحاول كما غيري من شبابٍ في نفس عمري، في نفس بلدي أن نتشبث بأي شيء في الحياة يجعلنا نعيش من أجله.. لا أملك الكثير من المال، ولست الفتى الذي وهبه الله نعمة الجمال.. ولكن لي قلب كبير.. إذا أحب أخلص، كما لم يعرف للخيانة معنى، أقول هذا الكلام لأني لا أريد خلافات مرة أخرى، لا أريد غضبا وحزنا.. وإذا كان فلا تتهربي وتمنعي الرسائل.. إذا غضبتِ تعالي واغضبي في حضني، إذا حزنتِ تعالي.. واحزني بين أضلعي فانا أحبك.. وها أنا ذا بين يديكِ فتقبليني مني كما أنا وقولي أنكِ سعيدة بي كما أنا سعيد بكِ أنا أحبك ولا أحب غيرك ولا أعرف كيف يكون الحب إلا بك ومعك.

مع محبتي..

رحيم.

***

عزيزي رحيم:

سلم الله قلبك من كل سوء، وبعد؛

فهذا أول خطاب يصلني منك بعد غياب دام لأكثر من شهر في أيام الزمان الثقيلة، مر كأنه عام، أو ربما أعوام كثيرة لا مصير لها، ولكن لهفة الاشتياق وحرارة الكلمات أنستني ما كان فيه من كلام جارح.. وأقول هنا جارح بالمعنى الحقيقي لها، فكيف يخطر بعقلك أن تكتب أن حظك في الدنيا قليل؟ ألا يكفيك أنني في حياتك؟ وكيف تتحدث عن المال في إحدى رسائلنا.. وما الحديث عن نعمة الجمال؟ ها أخبرني!

رحيمي أنا أحببتك لشخصك.. عندما وقعت في حبك أبداً لم يمر في خاطري شيءٌ مما ذكرت، أحببتك لأنك إنسان.. تشعر بما أشعر به، تعاني مما أعاني منه، تحب ما أحبه، وتكره ما لا أطيقه، فهل يصح يا شقيق نفسي أن تكتب ما كتبته، هذه الكلمات ستحاسب عليها عندما تعود لنا سالماً، ولن أعلق على شيء مما ذكرت.. ولن أعطي الموضوع اهتماما أكثر من ذلك.

شيء جميل أن تصالحني بأغنية من أغاني العملاق محمد عبد الوهاب، وصدقاً ما كتبت عن الواقعة التي مر بها الموسيقار الفنان. تعلم، نحن نفتقد حقاً تلك الحالات النادرة في الموسيقى، نفتقد ذلك الشعور الحقيقي الذي يصل إلى القلب دون تكلف أو تصنع من المطرب، ذلك الجيل الذي لم يكتب إلا ما يشعر به، عاشت موسيقاه وكلماته إلى الآن نسمعها ونرددها بيننا لأنها خرجت صادقة، وتغنت بصدق أكثر، تعبوا عليها.. أعطوها كل ما لديهم.. كل ما فيهم، فأعطتهم الخلود، والأبدية وارتقت بهم إلى العالمية، أأمل أن تعود الموسيقى العربية إلى موضعها الطبيعي ومكانها الحقيقي.. تعبر عنا، عن ثقافتنا وهويتنا، وترتقي أيضًا بنا من اللاشيء إلى الشيء الكبير.

وأخيراً يا صديق عمري بل يا حبيب نفسي بل يا أنا، لا تكترث إلى أفعالي الطفولية، فالطفلة التي تعيش بداخلي لا تظهر إلا أمامك.. أنت فقط، لا أعلم لماذا! ربما لأنها رأت فيك حنان الأب فتتدلل عليك، أنا أحبك يا رحيم، أحبك لأنك رحيم بالمعنى اللغوي لأسمك وبالمعنى الصادق الكائن في مكنون شخصك، أنت الآن مثل القمر الذي ننتظره في كل إجازة تعود إليها فهل رأيت أحداً يكره القمر؟ إلا إذا كان أحدٌ لا يعرف القمر! وأنا أعرف قمري الذي دائما يضيء حياتي.

أنتظر أغنية أخرى تهديني بها، أو تهديني إليها.. لأنني صدقاً أحب أغانيك، أو بالأحرى أحبك أنت وموسيقاك.

ريم، وكفى.

***

من رحيم إلى ريم:

تعلمين أن اسمك هو اسمي من دون حاء الحب! وهو الظبي الخالص البياض الذي تغنى به الشعراء؟ تعلمين أيضاً أن اسمك هو آخر ما تبقى في النهار من بياض ونور؟ إلى أن يأتي الليل بسواده، يقال له نهار ريم أي طويل.

جميل حديثك عن الموسيقى، والأجمل قولك أننا نفتقد إلى الإحساس الصادق الخالص الخارج من القلب إلى القلب في الموسيقى العربية، وإن الحديث في هذا الملف الخطير يأخذنا إلى مواضيع مهمة غابت عنا في حياتنا ونسيناها عن حقائق الجيل القديم، فلم نعطه حقه ولن نفيه حجمه الذي يستحقه ولم نقدم له شيئا يضاهي ما قدمه لنا، إننا نعاني من إرهاص في الموسيقى.. ليست الموسيقى فقط وإنما في الذوق العام أيضا.. افتقدنا حقاً شخصية مصر الموسيقية، والأدبية، وأقول الأدبية أيضًا لأن شرطا من شروط الغناء المرتبط بالموسيقى هو الكلمات، فما الأغنية إلا كلمة وموسيقى وصوت، وإذا رجعنا إلى الأصل.. أصل الموسيقى سنجد أجدادنا الفراعنة هم أوائل الذين وضعوا الموسيقى، وكانت جزءا لا يتجزأ من حياتهم، وهذا ما ذكروه ونقشوه وخلدوه على جدرانهم لـلإله تحوت وهو أحد أرباب "ثامون" الأشمونين الكوني، كانوا يعتبرونه من أهم الآلهة في عصرهم، ليس لأنه أول من وضع السلم الموسيقي لديهم.. ولا لأنه اخترع بعض الأدوات الموسيقية فقط؛ بل لأنه هو أيضا الذي علمهم القراءة والكتابة والحساب.. فنقشوا صورته وهو برأس أبي منجل دليلاً على عظمته ورفعة شأنه، وبعدها بفترة ظهر أوزير واستخدم آلات تحوت التي كانت بدائية مثل الجنك والقيثارة، وبعض أدوات النفخ مثل الناي والمزمار، تعلمين أنهم شكلوا فرقا كاملة للموسيقى، والرقص بطريقة منسقة وراقية، تعبر عن المناسبات المختلفة، وكان السلم الموسيقي يتكون وقتها من خمس طبقات.

الموسيقى عند أجدادنا القدماء هي أيضًا سر من أسرارهم الكثيرة التي حيرت العلماء ولغز جميل يستحق أن نبحث عنه ونفتش فيه. تطورت الموسيقى رويدا رويدا إلى أن جاءت الكنيسة القبطية بترانيم السلام لتنقل معها وبها الموسيقى نقلة كبيرة.. ومع انتشار المسيحية في كل الأقطار، نشأ معها في كل قطر فن موسيقي كنسي يعبر عن موسيقى الشعب وطريقة تعبيره عنها، ولكن في الأصل هي موسيقى فرعونية، تنقلت من جيل لآخر.. إلى العصر الحديث، ونهضة الموسيقى على يد محمد علي منذ عام 1805م وانتشار المناسبات وحفلات الزفاف، وحتى في الموالد كان المداحون يقومون بالتراتيل والموشحات تصحبها موسيقى خاصة وكان أشهرها (السيد البدوي) في طنطا، والحسين والسيدة زينب في القاهرة، وإلى الآن لا تزال قائمة، ثم جاء الخديوي إسماعيل 1863م وجاءت معه حالة الرخاء على العاصمة القاهرة وبدأ الموسيقيون يفيقون من خمول السلطة العثمانية. أسس الخديوي قناة السويس وعند افتتاحها، أمر ببناء أكبر صرح موسيقي في تاريخ مصر وهو الأوبرا ليس هذا فحسب، لكنه أسند ملفها إلى الموسيقار العالمي الإيطالي الجنسية (فردي) وألف أوبرا عايدة ودُعي إلى حفل الافتتاح ملوك وأمراء من أوروبا، ومن هنا كانت نهضة مصر الموسيقية، جاء على إثرها نازحون من الشام والعالم العربي وأتراك وامتزجت موسيقى القصر بألحان مصرية سورية وتركية وأعجبت الأسرة الخديوية بالأمر فكانت تدعوا الفرق لإقامة حفل صغير داخل القصر بمصاحبة تخت صغير وبطانة يغنون الطقاطيق، وكان من أبدع في هذه الموسيقى الراحل عبده الحامولي 1847م، وكان يصاحبه أحيانا من سوريا سامي الشوا في مطلع القرن العشرين الذي أدخل آلة الكمان التي أحبها إلى التخت المصري، وأبدع ابنه أيضًا في مطلع القرن العشرين في عزف الكمان. تعلمين يا ريم أنهم كانوا يقدمون حفلاتهم في حديقة الأزبكية ويترددون إليها كثيراً، ومن هناك ومن تجمعاتهم ظهر لنا المنشد والمؤذن الجميل سلامة حجازي وكان من رواد ربط الإنشاد الديني

بالمسرح، وفي هذه التواريخ أيضاً ظهرت سلطانة الطرب "منيرة المهدية" وهي من أوائل السيدات التي وقفت على خشبة المسرح بجانب سلامة حجازي قبل أن تؤسس ملهى خاص بها في حي الأزبكية، كان يتردد إليه دائما الأدباء والشعراء والمثقفون. احفظي هذه الأسماء جيدا، فمثلها لا يذاع ولا نعلم عنه شيئاً ويكفي هذا القدر اليوم من المعلومات لأنني شعرت وكأن الخطاب تحول إلى حصة تاريخ. سأوافيك الخطاب القادم بالمزيد.

كوني جميلة يا قمري.

رحيم.

***

عزيزي رحيم:

تحية إجلال لمخزونك الثقافي الكبير، وبعد..؛

فأنا شاكرة أناملك التي أسرتني بإهمال الراء مرة وتشديدها في أخرى، بمعلومات شيقة جديدة لم أكن أعرف عنها أي شيء وأن هذا الكم الهائل من المعرفة والتنوير حقا كما أردفت غائب عنا، وكما ذكرت ينبغي ألا يفوتنا منه شيء.

وإني لا أحب أن أكتب اليوم إلا فيما كتبت عنه لأشاركك ما تحبه وتحب الكلام فيه عن الفنون الجميلة، ولو أني أرفض ذلك المصطلح، ليس لأن هناك فنون جميلة وأخرى قبيحة.. وإنما أخاف أن توصد في وجهي هذه الصفة التقليدية أبواب فنون جديدة، أحرص كل الحرص على بيان علاقتها بالأدب وبيان موضعها منه، ففي تراثنا الفكري الراهن بين الأدب والفن تفرقة تقوم على أساس أن الأدب مادته المعاني وأن الفن مادته الصورة وهي أيضاً من رأيي مفارقة على غير أساس، ذلك لأن الأدب إنما يقوم بالصور بقدر ما يقوم بالمعاني والصورة تكمن في المعاني.

الصورة في العمل الأدبي هي التي تسويه أدباً، وإذا نظرنا إلى الموسيقى وهي أشد الفنون تجريداً، فسنجد أنها كما قلت تتكون من كلمات وصوت وموسيقى إذن الكلمات الأدبية هي جزء لا يتجزأ من الأغنية.. وبناء عليه الأدب موجود في الفنون الموسيقية وإذا كان الأدب خال من الصور المعانية والبلاغية فلا يكون أدباً.

قد تعبر بالفن مرحلة من المراحل يغلب فيها طابع التعبير الحسي، بغير أن تكون هناك دلالة كما هو الحال في المدرسة الانطباعية، أواخر القرن التاسع عشر، والمدرسة التكعيبية بعد ذلك، فالمدرسة الأولى موغلة في حسيتها دون احتفال بالدلالات الفكرية، والمدرسة الثانية موغلة كذلك في تجريديتها دون احتفال بمضمون. على أن ذلك في الحقيقة مظهر عابر موقوت، فمهما تخلى الفنان عن الدلالة فهي تلاحقه وتدمغ عمله، أراد ذلك أم لم يرد.

وما أقصده هنا هو أن الأدب والفن سواء بسواء بناء متراكب يعبران عن المعاني والدلالات تعبيراً مصوراً.. على غرار القصة والرواية والشعر والسيناريو والأغنية وحتى الرسم، فإن لم تكن الصورة تحوي بين طياتها معنى أدبيا فلن يكون لها قيمة، وحتى الرقص وغير ذلك من مختلف التعابير الفنية والأدبية جميعاً.

وهناك أيضاً تفرقة أخرى بين الفنون والأدب تنبع من التفرقة السابقة تقوم على أساس أن الفن وحِدة متكاملة تترابط عناصرها، وتتداخل مقوماتها الداخلية من ألوان وظلال وفراغات وأنغام وصور متلاحقة، وأن هناك الوحدة الداخلية المتكاملة هي وحدها دلالة الفن وقيمته، فالوحدة المتجانسة في اللوحة والبناء المتماثل في السيمفونية هو دلالاتهما، وهو قيمتهما الأساسية على حين أن دلالة الأدب إنما تقوم في القضية التي يطرحها ويلتزمها، وعلي هذا فقيمة الفن من داخله وجوهره أما قيمة الأدب فمن خارجه، والحق أن الأدب والفن بناء متراكب في جسد واحد، متآلف العناصر متكامل الأنحاء والزوايا، يعلو ويسف من حيث المرتبة الفنية بمقدار ما تنبض أو تجف فيه هذه السمات، والأدب والفن كذلك تعبيران عن حياتنا الاجتماعية يستمدان الدلالة منها ومن مواقف الأديب والفنان.

تنويه صغير: أعتقد أنهم كان يجب عليهم فعل ذلك، تعرف لماذا؟ لأنه كان هناك ملك يستمع إليهم، رئيس جمهورية ووزراء وسفراء، يجلسون على مقاعد السامعين، فكان لزاماً أن ينشدوا ما يتناسب مع الحضور.. وأن يتغنوا بما يليق بهم.

أنتظر خطابك القادم لأعرف المزيد..

وانتظر خطابي القادم لأوافيك بمثله.

كن كما أنت رحيم.

ريم المخلصة دائماً.

***

من رحيم إلى ريم..

لم أكن أعلم أن خطابي السابق سينال إعجابك بهذا القدر، لأنني ثرثرت فيه كثيراً.. ولكن تقبلي ثرثرتي على أي حال فأنا هنا بين رمال وجبال لا أجد من أتحدث إليه باستفاضة، وحتى الأصدقاء هنا لهم اهتمامات غيري، كلعب الكوتشينة والدومينو وأنا لا أجيد لعب هذه الأشياء، وأنا حقا أفتقد كل محادثاتنا وجلساتنا وكل شيء بيننا كفقدان الأب لابنته، أعتقد حقاً كما ذكرتي، فعندما يكون الجمهور مثقفاً، تكون الكلمات راقية.

سأحكي لكِ عن بداية دخول الأسطوانة مصر، كان ذلك في القرن العشرين عندما رأت الشركات الأوروبية أن السوق المصرية في الشرق الأوسط أصبحت جاهزة وأرضاً خصبة لأن يستقبل أعمالهم، في عام 1905م تعاقدت شركتا أوديون مع منيرة المهدية وسلامة حجازي، والمنيلاوي، لأن تسجل لهم، كانت الأسطوانة وقتها لا تتسع لتسجيل أكثر من خمس دقائق فقط، وهذه مدة ضئيلة جداً لما كانوا يقدمونه في أغانيهم وأناشيدهم التي كانت كلها قصائد لكبار الشعراء والكُتّاب، وجاءت الحرب العالمية الأولى، كان الجميع يعتقد أن سوق الموسيقى سينحسر لظروف الحرب ولكن كان العكس، اندفعت الموسيقى معها اندفاعا كبيراً، فظهرت الطقطوقة وكان يقدمها مغني أو مغنية مع التخت وبمصاحبة البطانة وهم مجموعة من المرددين.

أتاحت منيرة المهدية فرصة لظهور وجوه جديدة معها كان على رأسهم محمد عبدالوهاب الذي سيعتلي فيما بعد صدارة التطوير الموسيقي في مصر، لا بل في الوطن العربي، هكذا أيضًا لن أفيه حقه، سيعتلي العالمية، وبدأنا ننظر إلى التطور الغربي في الموسيقى فأخذنا منهم الأوبريت والمنوعات، وفي تلك التواريخ وبين كل هذه الأحداث الكثيرة والمتتابعة ظهر لنا أيضاً العبقري سيد درويش الذي قدم فنا مختلفا فكان يخاطب أبناء البلد، من عمال وموظفين وكادحين، ونادى في أغانيه

بمكافحة الاستعمار الأجنبي إلى جوار أغانيه في الحب والغرام، وطور سيد درويش الأوركسترا بحيث يستطيع تقديم الأوبريت التي كان يؤلفها ومنها الباروكة ولكن كان اهتمامه الأول بالأغنية الوطنية إلى أن توفاه الله وهو في ريعان شبابه عام 1917م وفقدت مصر فنانا رائداً في التطوير.. كبيراً ثائراً، ولكن ما تركه من إبداعات وتأثير في الفن لا يزال كبيراً إلى الآن فلا يزال النشيد الوطني من تلحينه، ولا أريد الإطالة ولكن ظهرت بعد ذلك السيدة الكبيرة، كروان الغناء وكوكب الشرق أم كلثوم فكانت صيحة جديدة في الغناء، ولا تزال تبهرنا في كل مرة نسمعها فيها على الرغم من أننا نسمعها كل يوم، هذه بإيجاز شديد بداية الموسيقى المصرية، فهل وبعد كل هذا تستحق موسيقانا التي غزت العالم أن نفعل ذلك بها الآن؟

إن الموسيقى هذه الأيام المليئة بالخبط والصخب والأصوات الغريبة التي نسمعها والكلمات المريبة التي تغني، لا تعبر إلا عن مدى إسفافنا وانحطاط ذوقنا الاجتماعي، أبداً والله ما كانت موسيقى مصر بهذا الشكل أبداً.

أبداً ما استحقت مصر أن نفعل بها هكذا، أن يظهر هؤلاء الجراثيم ويعتلوا دائرة المثل العليا ونرى الشباب يأخذون عنهم ويضعونهم في قائمة القادة، يمشون بخطاهم ويتغنون بهم. لم تكن شخصية مصر الموسيقية هكذا، لا يمكن أبداً، البلد الذي أخرج أم كلثوم ودرويش ومكاوي.. وغيرهم، أن يخرج هؤلاء المرتزقة الذين أفقدوا مصر ذوقها الموسيقي، وضيعوا بإسفافهم ما بنته الأجيال السابقة، عذراً على انفعالي ولكني غيور على مصر كما يغار الابن على أمه، ويعلم الله أنني لا أقول هذا إلا حبا فيها، أتمنى لها دائما السلامة والارتقاء.

زوديني بخطاب لأبرد به تلك الغصة في صدري.

أقبل يديك.. كوني بخير.

رحيم.

***

من ريم إلى رحيم.

العزيز الجميل:

تحية طيبة على قلبك الرحيم وبعد؛

أعتذر عن تأخري في الرد، ولكني كنت أعاني من ألم في الأسنان وذهبت إلى الطبيب الذي بدون رحمة نزع ضرسي رغماً عني، وإني أتعجب من ذلك الألم الذي لا يمكن له أن يذهب لا بأدوية ولا مسكنات، إنما بتدخل من الطبيب.. ولا يكفي الطبيب أنه أفقدنا إحدى أسنانا، لا؛ بل إنه يأخذ أجرا على ذلك! يعني نفقد أسناناً ونفقد أموالاً، ولكن هذا كله لا يعنيني في شيء قدر معاناتي وإحساسي بالكبر.. وها قد حان الوقت لنزع الأسنان والتعويض عنها بثابت أو متحرك.. لقد بدأت بفقدان أسناني يا رحيمي، اذهب وتزوج بأخرى.. لأنني أشفق عليك، فمالك بواحدة فقدت أسنانها، شاكرة مجهودك بالمعلومات الجميلة التي زودتني بها. كل الأمور هنا بخير لولا ارتفاع بعض أسعار الوقود والمحروقات وبناء عليه ارتفعت أسعار المواصلات وبناء عليه ارتفعت أسعار المأكولات والمشروبات. ولكن اطمئن فلايزال الهواء مجانيا.. ونستطيع أن نتنفس بسهولة والحمد الله.

كن كما أنت رحيمي ولك بالغ تحياتي.

أقبلك وأعانقك.

مع محبتي ريم.

***

من رحيم إلى ريم.

سلم الله قلبك الكبير..

وصلني خطابك عن أسنانك.. فدعوت الله لك بالشفاء العاجل، إن هذا الأمر يبدو جديداً عليكِ، أما عني فيا حبيبتي لقد فقدت ضروس العقل الأربع قبل أن تخرج من الأساس.. لأنها كان بها اعوجاج ربما سيؤثر بالسلب على الأسنان الموجودة، فقام الطبيب مشكوراً بإجراء جراحة أزال فيها ضروسي الأربعة، والشاهد أن هذا الأمر ليس له علاقة بالسن ولا يدل على الكبر، وإنما هو إهمال منك في عدم الحفاظ على أسنانك، وإذا قست الأمور كما تنظري أنتِ لها بعقلك الكبير وأقول الكبير واضعاً إياها بين علامتي تنصيص مخافة أن أفتح خطابك القادم فينفجر في وجهي؛ فسأقول إنني الآن أصبحت بلا عقل بعد فقدان أضراس العقل.. فهل هذا يعقل؟

يكفي يا ريم.. الحياة أصبحت سريعة والأسعار كما تقولي ارتفعت.. لابد أن نفعل شيئا لغدنا، أنا بخير حبيبتي، ولكن نفدت كل أوراقي وسرقت الورقة من مكتب العقيد لأكتب لكِ عليها، تقبليها واحتفظي بها فإنها ستكون ذكرى جميلة من أرض سيناء الحبيبة، سأعود في الأسبوع القادم إن شاء الله في آخر إجازة لي بالبذلة الميري.. وأمّا الإجازة التي تليها فستكون انقضاء الخدمة. إجازة بلا عودة إلى هنا حيث الحر الشديد.. والمياه القليلة.

إنني أعد الأيام والليالي ليلة بعد ليلة على هذا الأمل الذي أراه قريباً ويأتي بطيئاً كما السلحفاة.

كان أمس لدينا مشروع حرب، وقمنا بمحاكاة حرب حقيقية؛ أصبت فيها كل أهداف العدو.. وحصلت على مكافأة كيوم إجازة، ولكني سآخذه مع الأسبوع المقرر إن شاء الله، عندما تنقضي مدة الخدمة سأعلمك الرماية والتصويب،

وسأعلمك ركوب الخيل، سأعلمك العزف أيضاً، سأعلمك كل شيء أنا تعلمته أو أعرفه في هذه الدنيا، سأعطيك كل ما جمعته لأنني حقاً أحبك.. حتى لو فقدتِ كل أسنانك ولم يتبق منهن واحدة.

أقبلك كثيراً.

كوني بخير.

انتظريني عندما يكتمل القمر.

رحيمك.

***

وانتظرت بفارغ الصبر أن تمر تلك الليالي الجامدة من دونه.. أنتظر أن يكتمل القمر، ولا أرى أي اكتمال لقمر إلا عندما يأتي، فهو القمر والقمر هو. كان رحيم يأتي إلي قبل أن يذهب إلى بيته، كثيراً ما طلبت منه أن يذهب إليهم ومن ثم نتقابل ولكنه كان يرفض ذلك ويقول إنني بيته ومأواه وأنني وطنه الذي يدافع عنه. وهذه دلالة الحب الكبرى فالمحب لا يرى الدنيا إلا بعيون حبيبه، يفرح إذا فرح ويتألم إذا حزن، يهتم بمشكلته كأنها جزء منه وكأن كل شيء فيه يخصه، إنها علامة الحب الصادق وصفاء القلب المتين العطشان لماء العشق، وقلما نجد هذا الحب في أحدهم.

العناق بعد الاشتياق يطمئن النفس القلقة ويروي ظمأ القلب المتألم في جفاف البعد والهجر، كانت هذه الإجازة قصيرة بالمقارنة مع الأشياء التي يجب أن نفعلها، هناك الكثير يجب أن نأخذ خطوة فيه، لذا بدأنا من أول يوم رحلة البحث عن الأجهزة الكهربائية التي تحتاجها الشقة والذهاب إلى معارض الموبيليا لحجز غرفة الصالون والنوم، كان يستقبل كل شيء ببشاشة ولم أجد منه أي تزمت أو تأفف على الرغم من تعبه إزاء السفر والمعيشة المكفهرة في خندقة صغيرة دون الماء الصالح والرفاهية، ولكنه كان على طبيعته المرحة، متوازن، صفي القلب، عزب اللسان، وحريص كل الحرص أن يرى ابتسامتي، كنت أتعجب كيف يتحامل على نفسه كل هذا العناء، هل يخاف أن يفقدني، رحيم الآن كما عرفته في أول مرة، حتي بعد التواعد بيننا، لا بل؛ حتي بعدما ذهبنا نشتري أثاث المنزل، كل شيء يفعله يزيدني حبا فيه واحتراما له، الأمان والثقة كانتا كل ما أحتاجه في حياتي، ونحن بنات حواء إذا فقدنا أياً منهما ولو في لحظة واحدة بعد حياة طويلة، لن نغفر تلك الخطيئة، الأمان قبل الحب، والحب قبل المادة، لم أكن أتوقع أن يكون كل شيء بهذا اليسر، في أسبوع واحد جمعنا كل شيء، واتفقنا مع ورشة النجارة أن يصمم لنا غرفة المعيشة على ذوقنا، ولم نجدها لدى أي من المعارض فقررنا أن

نصممها، أصر رحيم أن نأتي بغرفة الأطفال، كنت أحاول تأجيل الفكرة إلى أن ننجز أشياء أهم من ذلك لكنه قرر ودفع أموالها، وفي آخر يوم وقبل أن يسافر، ذهبنا إلى مركبة في النيل لحجزها وتحديد ميعاد الفرح، كما ذهبنا إلى أتيليه لشراء فستان الزفاف الأبيض، كان جميلاً ذا زخارف متعددة الأشكال والأحجام مفتوح الكتفين، أحببته وأحبني رحيم فيه عندما ارتديته، رفضت أن يشتري بذلته لأنه الآن يفقد الكثير من وزنه، طلبت منه أن يهتم بأكله وصحته ليسترد عافيته وتكون البذلة لائقة بشكل كامل عليه، وددت لو أصنع له طعاماً ليأخذه معه ولكن كان هذا ممنوع لديهم، وحتي لو متاح فليست لديهم ثلاجة للحفاظ عليه، ودّعته عند موقف الأتوبيس، وكان عناقاً حاراً لم نترك بعضنا إلى أن تحرك السائق وشعرت أن قلبي يؤخذ مني، تركته وذهبت أنا لشراء بذلته، كانت هناك بذلة أحببتها وسيكون شكلها جميل عليه، فأحببت أن أكافئه بها، كان لونها رصاصي داكن، ثم اتجهت إلى أحد المتاجر واشتريت العديد من مستلزمات شهر رمضان الكريم، بعض السكر والزيت والسمن والأرز وزودت ذلك بالمكسرات والكنافة، وأخذت تاكسي إلى منزله، قلت لأمه أن رحيم اشتراها وتركها معي لأوصلهم لك. سبحان من يضع في قلوبنا البغض والمحبة، رأيتها تدعو له وتدعو لنا أن يتمم زفافنا على خير، قبلت يديها.. واتجهت أبحث عن أي سرير أنام عليه بعد كل هذه الرحلة الغريبة العجيبة.

كانت مهامي منذ اليوم التالي أن أبدأ في توديع حياة العزوبية اشتريت كل الكريمات والملطفات التي سأحتاجها، كنت أتابع بشكل شبه يومي أسعار المستلزمات الخاصة بالمكياج وغيره، كان ذلك يتطلب مجهوداً مضاعفاً لأنني بمفردي، ولكن أحببت ذلك الانفراد لأنني أختار كل شيء أنا أريده، كان رحيم قد فتح شهيتي للكتابة عن سبائك الذهب وهم جنودنا البواسل، الذين يقفون كالأسود لا يخافون ولا يهابون لومة لائم في الحق، يدافعون عنا بكل حياتهم،

يصدون أي محاولات من الممكن أن تصيب الوطن بضرر، كنت أحارب في وسط زحام اليوم لأن أنهي هذا الكتاب بالتزامن مع زواجنا وأن يكون له نصيب الإهداء.. وأن يكون عُمر الكتاب من عُمر زواجنا.. وها قد أوشك على الانتهاء.. انتظرت أول خطاب من رحيم يطمئنني عليه.

***

عزيزتي الجميلة دائماً:

سلم الله قلبك الرؤوم وبعد؛

بدأت منذ اليوم الأول في إنجاز الأوراق المطلوبة، كما أنني أعد أمتعتي وأجردها لتسليم "المِخلة"، كما وجدت الأصدقاء هنا قد تركوا اللعب واللهو واتجهوا إلى توديع بعضهم البعض، وكتابة بعض الرسائل وكلمات الفراق، على الرغم من شقاء المعيشة البدائية إلا أننا لا نصدق أننا سنفترق، كان عاما مليء بالأهوال والمفاجآت إلا أننا كنا على قلب رجل واحد يخاف بعضنا على كلنا، كما يخاف الأخ على أخيه، وإنني أشهد الله وأشهدك أنني أحببت كل من هنا، وأنني على الرغم من سعادتي بانقضاء مدتي إلا أنني حزين على فراق صحبتي، وخلتي، وما يصبرني حقاً هو أنني سأجتمع بكِ في مكان واحد، وهذه سعادة الدنيا بما فيها، فرحت للشقة، هي الآن أصبحت جاهزة لاستقبالنا، ولكني قلق من ورشة النجارة، أسأل الله أن ينجز العمل في موعده حتي لا نتعطل في شيء، كان جميل عليكِ فستان الزفاف ولكني أحببت الفستان الأول.. لأنه يتماشى قليلا مع عاداتنا وتقاليدنا، ولو أنني أرفضها في كثير من الأحايين.

المشهد ضبابي هنا بعض الشيء؛ الكل مشغول في حياة ما بعد الخدمة، الكل يترقب وأنا أيضاً أعاني قليلاً من الدوار والصداع، ربما هذا من كثرة الضغوط التي أمر بها الآن من نفسية وعصبية بل وجسدية هنا في الكتيبة، كنت أعاني من أن الوقت بطيء، الآن الوقت يمر بسرعة البرق، لا أستطيع إيقاف الساعة، لا أعلم لماذا.. فكأنها تسير بسرعة صاروخ إلى الفضاء، وكأنها أيضاً دهرٌ مليءٌ بالمتاعب، حقاً لا أعلم ماذا أريد، أنا أريد أن يمر الوقت بسرعة ولكني لا أريد الشعور بالمتاعب فيه، تعلمي أيضاً يا حبيبتي؟ ولكن هذا سر لا تخبري به ريم.. أنا أحب هذه المتاعب وأحب لذة الشقاء لأنني أعلم يقيناً أنني سأجني بعده أطيب ثمرة فاكهة

يمكن تذوقها في الحياة، أشعر بألم في معدتي وأخبرني طبيب الوحدة أنه من تغيير الطعام ربما في الإجازة الأخيرة؛ فمعدتي لم تعتد الأكل الدسم منذ فترة، صرف لي بعض الأدوية وأخبرني أنها في خلال يوم أو اثنين ستكون على ما يرام.

أنتظر خطابك القادم.

كوني جميلة..

أُقبّلك.

رحيم.

***

من ريم إلى رحيم.

سلم الله قلبك ومعدتك من كل سوء.

لا تقلق؛ ستكون بخير ولكن لم يعجبني كم التناقضات الداخلية التي تمر بها يا رحيم، اترك كل شيء بتدابير الله وأنه سيعوضنا خير العوض بإذن الله، ستكون بأحسن حال كما أخبرك الطبيب، اختلاف المأكولات هو فقط من فعلت بك ذلك، أفتقدك في رحلتي هنا أيضاً.. كل الأمور تسير كما نريد، مهندس الديكور سيأتي غداً الإثنين وأخبرني أنني سأستلم منه الشغل خالصاً يوم الخميس إن شاء الله، يتبق فقط فني الكهرباء الذي حيرني معه، على الرغم من أن عمله قليل جداً، فقط أشياء بسيطة لن تأخذ منه بعض الساعة.

لا تنزعج من شيء سيكون كله كما نريد، لا تجهد عقلك في التجهيزات أنا هنا، وأطمئن سأفعل كل شيء كما تريده، ألست واثقاً في ذوقي؟!

اجعل كل تركيزك في موقعك هناك وسط سبائك الذهب، وتأكد حبيبي أنني أحبك دائماً، أحبك كل يوم كما أنه لو كان مثل أول يوم، باللهفة الأولى والنظرة الأولى، والنبرة الأولى، وفي قلبي شغف العالم كله، لا تدع اليأس والإحباط يتسللا إلى قلبك فتكون كالمؤمن الضعيف، ولا تتحدث وأنت مشتت هكذا فتظهر كمن فقد رجاءه، بل تكلم واعمل كأن إيمانك لا يُمكن أن يقهر.

ندرك يا حبيبي أنه لا سبيل إلى الراحة في هذا العالم، وإلا لن ينمو شيء في حياتنا، نحن في هذه الحياة نسعى مثلنا مثل أي مخلوق على وجه الكرة الأرضية، كل المخلوقات تسعى للبقاء والعيش وكل حسب معرفته وطاقته وقدرته، ومن هنا تأتي الفرضية أن الأحلام تبقى أحلاماً، مالم نسع إلى تحقيقها، وتتحول إلى واقعٍ ما دُمنا مُصرين على تحقيقها، أعلم أنك تعاني من ثقلٍ وجوديٍ، أكثر من أي شخص في هذه الحياة، وكذلك ربما كل الرجال، يعانون أكثر بكثير من النساء لأن المتوقع

منهم أكثر وأشد، وهذا يرجع إلى أن ربما سقف طموحاتهم يكاد يكون ملحمياً ميثولوجياً صعب التحقيق. الغالب أن المرأة أكثر عُرضة للاكتئاب، ولكن الحقيقة أن الرجال يعانون من ذلك ضعفنا بأضعاف مضاعفة، لأنه يكتم ويدفن فيزداد الثقل الوجودي الذي يئوده، والمرأة العاقلة هي التي لا تحاول أن تنبش في هذه المدفونات لأنها تشبه المقبرة المغلقة منذ أمد بعيد، إذا فُتحت فجأة دون ترتيب أو تجهيز فسيخرج منها مواد سامة ربما تقتل العلاقة التي ربما كانت لو استمرت من أجمل العلاقات وأنجحها.. أكرر لا تجهد نفسك في التفكير، أنت أجمل من أن تكترث لكل هذا، أنا معك وسأكون معك حتى لو لم ينه مهندس الديكور عمله، أو يضع فني الكهرباء لمساته.. أو ينه معرض الموبيليا غرفة النوم، أنا معك حتى لو كنا سننام على بلاط الشقة، سأكون معك لأنني وجدتني فيك وسأكون سعيدة بك ومعك.

أقبلك.

مع محبتي.

ريم.

***

من رحيم إلى ريم.

عزيزتي الجميلة.. سلم الله قلبك من كل سوء.. لا أعلم لماذا كتبتِ في هذا الوقت عن الانتحار وأنا في هذه الحالة، أعلم حبيبتي أنني أعاني من اكتئاب ولكن إن شاء الله لن يصل إلى حد الانتحار، أنا بخير الحمد لله؛ والسرية جميعها فرحة مرحة تغني أغاني البهجة والسرور، لم يتبق الكثير في رحلة العودة.. والخروج النهائي.

كما تغيرت معاملة قائد الكتيبة معنا إلى أحسن ما يمكن أن يكون، بل إنهم ليلة أمس دعونا جميعا - الذين ستنتهي مدتهم العسكرية - إلى إفطار جماعي، وأكلنا سمكا لذيذا، وتغنينا بأغاني وطنية من التي تقشعر لها الأبدان، ما أعظم الواجب الوطني رغم تعبه ومسؤوليته، وما أعظم البهجة والسرور في عيون أصدقائنا الجنود، كل شيء بخير الحمد لله ولا ينقصنا هنا أي شيء، لقد كتبنا الأيام المتبقية على جدران الحائط وكل يوم ينقضي نضع جواره علامة الصح، ولم يتبق الكثير، بمجرد انتهاء شهر رمضان الكريم ستنتهي معه حياة الجهادية، ولو أنني كنت أتمنى إجازة ليوم واحد أفطر فيها معك.. ولكن قائد الكتيبة أجبرني على الانتظار وأنني لن أعود هنا مرة أخرى، لا بأس سنفطر العام القادم كله مع بعضنا، لم أنزعج يا ريم من الفني والكهربائي والمهندس وغيرهم.. أعلم أن هذا لن يمر بسهولة، ولكني أجتهد أن يكون كل شيء في ميعاده، وأعتقد أنك كذلك، وأعلم يا ريمي أنك لم تقصري في شيء، وإن هذا الأمر هو ما يزعجني، فمثلك لا يمكن أن يتعامل مع فنيين وأصحاب حِرف، وإنما يجلس معزز مكرم ويأتي كل شيء إليه، هذا هو فقط ما أشعر به.. أنا قلق عليك، أشعر بالتقصير تجاهك، أريدك فقط أن ترتاحي حتى ينتهي ذلك القصر الذي سيكون لنا فيه أجمل ذكريات. أكتب لك الآن وأنا في خندقة صديقي صلاح، وهو يبلغك كل السلامات والتحيات ممسكاً

صورة ابنه الصغير، لقد كبر كثيراً وتغيرت ملامحه والآن ينطق بابا بصعوبة جميلة تخرج كأنها حرف الباء فقط، لكنه سعيد بها وأنا سعيد لسعادته تلك، لقد دعوته هو وزوجته وابنه الصغير لحضور حفل زفافنا إن شاء الله، ووعدني أنه سيأتي، يتبقى الآن دعوة الأصدقاء ورفقاء العمل، والأهل جميعهم.

بالأمس حلمت بوالدي عليه رحمة الله، كان سعيداً مغتبطاً بي، اقترب مني ومسح بيديه على رأسي، وقال لي مبارك يا بطل، رأيته كما لو كان شاباً صغيراً، وأعتقد أنه سعيد لزفافي.. كنت أتمنى أن يكون حاضراً بيننا، ولكني أثق أنه في مكان أفضل من هنا بكثير، أخبري أمي برؤيتي هذه، وطمئنيها على حالي، وزفي إليها خبر قدومي إن شاء الله، وقبليها كثيراً فإني حقاً أفتقد أن أقبل يديها، لا أعلم لماذا كل هذا الحنين بداخلي، هل لأنني سأغادر مكاني عما قريب وسأكون في حياة جديدة.. أم أنني.. لا أعلم. ولكنه شعور جيد على أي حال.. أنتظر خطابك القادم..

أقبلك كثيراً كثيراً..

أنتظر خطابك القادم بشغف.. زوديني.

كوني بخير..

رحيم.

***

من ريم إلى رحيم.

سلام الله عليك، أطمئنك في أول الخطاب أن كل شيء أصبح جاهزاً.. ولا ينتظر غيرك يا حبيب نفسي وقلبي.

أكتب لك الآن وأنا في نفس المكان الذي تقابلنا فيه أول مرة يوم نجاحك وتخرجك.. اليوم الذي شهد أول لقاء بيننا وجها لوجه، وإني أعترف أن المكان ليس فيه أي بهجة من دونك.. ليس المكان فقط وإنما الحياة أجمعها.. أفتقد كل أحاديثنا ونظراتنا، أفتقد نبرة صوتك، دفء قربك.

لم أقصد شيئا بحديثي عن الانتحار ^^ ولكنه كان في سياق النص، كما أشرت أنكم معشر الرجال تعانون أكثر.. كنت أقصد التهوين عليك ولكنه خرج هكذا، تقبله دون اكتراث بشيء، أو مزق الخطاب.. أنا أضحك الآن.

شيء جميل أن ترى والدك العزيز جاء ليهون عليك قليل الأيام القادمة، وربما هو يبارك لك حفل زفافك وانقضاء خدمتك.. كانت أمي تقول لي أن الأموات لا يزورون إلا الذين يحبونهم، وأنه جاء ليثبت ذلك الآن، إنه يحبك.. أتمنى أن أرى والدي بالمنام حتى ولو لحظات.

رحيم، متي تعود؟ لدي الكثير من الأشياء لأحكيها لك ولا تكفي الخطابات لتجمع كلماتها، كما اشتريت أشياء جديدة أريد أن أريها لك، رحيم أنا أيضاً أفتقدك.. هذا أسوأ رمضان يمر علي من أعوام عديدة، رمضان من دون أحباب كثيرة، يكفيهم أبي وأنت، تعلم أمي عندما تعد الإفطار.. وبعد أن تضعه على مائدته، تترك المقعد الخاص بأبي فارغاً وتأتي بصورة له لتجلس جوارنا على نفس مقعده، كأنه حاضر معنا.. أحيانا كثيرة أراها تتحدث إلى الصورة، هي لا تتقبل فكرة أنه ليس بيننا، تسأله كثيراً إذا كان يفطر بشكل سليم.

منذ فترة كبيرة تحدثت معي رحيمي في إحدى المرات عن الوفاء.. ولم أفهمه،

أو إن دق التعبير لم أشعره.. حتى رأيت أمي تفعل ذلك.. فعرفت كيف يكون ومن أين يأتي، لم أكن أدرك الكسرة التي بداخلها، إنها لا تفكر في زفافي قدر تفكيرها في أبي الذي لن يعود.

لا أستطيع أن أفعل لها شيئا سوى أن أحتضنها، وربما تنزرف دموعنا معاً، أربت على كتفها، ترى أنا التي أدرت مؤسسات وفعلت كل شيء في حياتي، ضعفت أمام دمعة أمي التي لا أقوى على فعل شيء لها، وفقدانها لشيء تحبه، أو شخص تراه الحياة وأراه أنا النجاة، رحيم أنا في أمس الحاجة إلى يدك التي تمسح شعري، وتقويني، ما أصعب ذلك الشعور أن تعطي شيء أنت نفسك تحتاج إليه، متى يا الله ينقضي هذا الشهر وأجدك جواري، أنا أيضاً مزقت أوراق النتيجة التقويمية وجعلتها على اليوم الذي ستخرج فيه، أقول لك على سر أخفيته؛ لقد اشتريت بذلة الفرح لك، اشتريت البذلة التي أعجبتني لأنها تناسبك.. كم أشتاق لرؤيتك فيها، ورؤيتها عليك، سيعجبك ذوقي أكيد.. أنا أثق في ذلك، حكيت رؤية أبيك لأمك كنت أريد إسعادها ولكنني وجدتها تنهمر في الدموع.. رحيم أمي تبكي وأمك تفعل مثلها وأنا واقفة بين الاثنتين أربت هنا وهناك.. لقد تعبت، هيا تعال الآن لتحمل عني شيئا.

كن بخير دائماً.

أقبلك..

مع محبتي.. ريم.

***

ما أبغضت شيئا في حياتي قدر أن يتدخل إنسان في حياتي.. ويملي علي أمورا من وجهة نظره قد لا تتفق معي، أو حياتي.. لذا ابتعدت عن كل الأصدقاء الذين كانوا يحاولون فعل ذلك معي، ولا أعلم لماذا كانت هذه الأفكار تحوم في رأسي قبيل الزواج.. ولكني اجتهدت في أن أنحيها جانباً وأنتظر.

أنتظر الطلبات التي تملى علي لتجهيز المنزل، والسعي وراء كل ما نحتاجه.

أيقنت في هذه الأيام أن المرأة تظل قائدة ما لم تحب، فإذا أحبت تخلت عن دورها النسوي واجتهدت أن تكون جارية تلبي كل ما يُملى عليها بحب واحترام وتقدير، وتكون سعيدة بذلك، وهذا ليس عيبا وإنما دلالة الإخلاص في الحب وعقد النية أن تسلم محبوبها كل زمام نفسها وأدواتها.. وتعطيه مفتاحها، لذا يجب على الرجل أن يقدّر كل ما تفعله المرأة من أجله، لقد أَلِفت جميع المحافل.. وأنست المراقص والنوادي، حضرت الندوات والمؤتمرات، صادقت النساء المتحضرات المتأنقات، أكلت مما يأكلن وشربت مما يشربن، غنيت كما يغنين ورقصت مثلهن، ارتديت أزياءهن، وفهمت كيف هي السعادة التي يفهمنها، وكان يمكن أن أكمل في تلك الحياة، إلا أنني كنت كلما خلوت إلى نفسي، وبعدت عن ضوضاء الحياة وضجيجها، ونظرت في أعماق سريرتي، وجدتني أصطنع حياة ليست كالحيوات، رأيت في كل هذا نفاقا بائسا، ليس كالنفاق الذي كنت أعده في طفولتي، نفاق لن يصل بنا لشيء مما نريده، وأدركت أن أفقر الفقراء ليس هو الذي لا يجد طعاماً ولا شراباً.. وإنما هو الذي لا يجد غذاء لمشاعره فتيبس وتجف، إنهم يبتسمن في وجه بعضهن البعض ولكن كابتسامة الليث الهصور، وإذا أعطيتها ظهرك، نهشت في جسدك كما لو كنت فريسة سهلة الترويض، إنهن يتطلعن للأعلى ولكن ليس فقط بالنفاق المحبوب أو بالكفاءات التي تؤهلهن لذلك، وإنما على أكتاف أناس

أخر، قد تكون اجتهدت طيلة حياتها وليس لديها المؤهلات التي تضعها في مكان القيادة.. أو بالأحرى ليس لديهن موهبة النفاق.

إن كل من هم في تلك الحياة ليسوا بمكانهم الصحيح، إنهم أصغر بكثير من أن يكونوا هنا، حيث القيادة والريادة. وجميعهم لا يُنتظر منهم رسالة حياة أو صوت ضمير، ننتظر أحيانا أن تتغير الظروف، ويكون هناك من أكفأ ولكن كل ما يفكرون فيه بعد الوصول ليس في كيفية التطوير والاستثمار في العقول والأيدي.. وإنما في كيفية المحافظة على ذلك المقعد لأطول مدة ممكنة، ويلتصقون فيه كما يلتصق الطلاء في حائط الجدار، وإنهم في فوضى حقيقية تحيق بهم، لن تأخذهم لشيء سوى الهلاك، إنهم يمنعون الفقراء أموالهم، ونقودهم تزداد بمقدار المنع.. وتزداد معها ضمائرهم جفاء وقسوة وغلظة ونسيان للفضيلة، ويفقدون الشعور بالخير، فيفقدون معه الشعور بلذة النفس وبعدما يفقدون شعورهم بأنفسهم يفقدون الشعور بالسعادة.

قررت الانسحاب من تلك الفوضى لأنه يكفي هذا الكم من الهلاك الداخلي.. أدركت أن الأشياء ستأتي من تلقاء نفسها دون أي جهد، تأتي بعد أن تكون مللت انتظارها، وستفارقنا أشياء أيضاً لطالما سعينا واجتهدنا لأن تبقى معنا.

وانتصف شهر رمضان الكريم، واكتمل القمر، ولم يأت رحيم.. وعلمت أنهم رفضوا إعطاءه أسبوع الإجازة لأنه لم يتبق له إلا أسبوعان وتنقضي جميع المدة، فصبرت نفسي بالذهاب إلى مكاننا الذي نحب وأفطرت يومها هناك كما كنا نفعل، والحقيقة أنني لم أرد كسر العادة التي ألفنا عليها، فعلى أي حال يكون أحدنا هناك.. ينظر للقمر، وسمعت أم كلثوم بصوت كمنجة رحيم، بحثت طويلا عن الحب في أغانيها، الحب الذي كتبه كافكا إلى ميلينا، الحب الموجود في رواية جاين أوستن، المتواجد بالسينما، الحب المليء بالمغامرات.. ولم أره في أي مما قابلت طيلة

حياتي.. حتى ظهر رحيم الأصغر والأبسط والذي لم أكن أتوقعه في يوم من الأيام، رحيم الذي لا يملك من الدنيا سوى كرامته ورجولته.. وبيت صغير، وأمه وأخيه، هذا هو متاعه، لكنه يملك شيئاً كبيراً.. اسمه عزة النفس والكرامة.

كنت أسمع صوت عزفه وأتخيل أنه أمامي يعزف لي، وأتذكر كل الذي كان يفعله معي.. فكلما تخاصمنا، كان يأتي عند نافذة غرفتي، يعزف لي إحدى الأغاني التي أحبها.. لا يكترث إذا كان صيفاً أو شتاء، ممطراً أو شديد الحرارة، ولا يعطي أي اهتمام لسب الجيران له في منتصف الليل، ولا تلك العجوز التي ألقت عليه مياها باردة في عز الشتاء. مما أصابه بالإعياء، لم أكن أحب أن نتخاصم، ليس في فكرة الخصام أو أنني لا أبحث عنه، ولكني كنت أتجنب قدر الإمكان أن يفعل إحدى حركاته المجنونة.

أسعدني رحيم وقتما كنت فقدت معنى السعادة، أبهجني بعد أن فقدت الحياة رونقها وبهاءها، أنار ظلمتها بعد أن فقدت ضياءها.. إنه الإنسان.

أتذكر وقتما سأله أحدهم عن عزفه وحرمانية الموسيقى؛ كان جوابه بسيط غير متكلف: أنا لا أفعل شيئا أستحق عليه العقاب.. أنا فقط أحاول إسعاد الناس، أعتقد أن الله بكرمه لا يمكن أن يعذب إنساناً لمجرد أنه فكر فقط كيف يُسعد غيره.

ودائماً أسعدنا بموهبته العذبة، التي تخرج من أنامله لتسكن في قلبنا وتُسكر روحنا العطشى لخمر الفن والإبداع.

وهذه دلالية الفنان، إنه لا يطلب السعادة من أحد ولكنه يأخذها من الأشجار والثمار، والجبال والرمال، يطلبها في منظر الشمس طالعة وغاربة، والسحب مجتمعة ومتفرقة، أو عندما يكتمل القمر.

عزف العديد من المقطوعات بيديه بالإضافة إلى ابتكاره المنفرد، وكانت

جميعها لم تر الشمس.. كان إذا جاء الليل وخلا بنفسه أمسك الكمان الخاصة به وداعبت أنامله أوتارها، يعزف ما شاء الله له أن يعزف، من ألحان قديمة يصغها بلمسات حديثة، فتطرب آذان السامع لها بنهم.. وإني أعلم أن الآلام الماضية التي مر بها في حياته، كانت قاسية في نفسه، ولكنه عرف كيف يتعامل معها وأدخلها حياته فأنارتها وملأتها شعوراً ووجداناً، وسمت بها فوق السحاب، وتحت القمر بين النجوم وليالي السهر، فتجلت بجلالها، ثم انتقل إلى مرحلة الابتكار، فوضع ألحانا جديدة بحزنه، كانت تتفجر من ذلك القلب المصدوع تفجر المياه الصافية من بطون الأحجار، فتنساب في أفئدة المحزونين البائسين، وتتغلغل في قلوبهم حتي تبلغ سويداءها، وما كان رحيم من علماء الموسيقى، ولا درسها إلا في حصص من مراكز تقدم ذلك بأجر، وإنما اعتمد على الاجتهاد، لأنها في قلبه.. والقلب هو الينبوع الثجاج الذي يتفجر منه الشعر والموسيقى وسائر الفنون الأدبية، فإذا بكى صدق في بكائه، وإذا تفجع تفجع بقلبه، ولا يفهم لغة القلب غير القلب، ولا يشعر بسر النفس غير النفس، ورب أنّة بسيطة يسمعها السامع في جوف الليل من ثاكل منكوب، تأخذ من نفسه ما لا تأخذه قطعة شعرية بليغة مملوءة بغرائب المعاني وبدائع التصورات، ينظمها شاعر غير باك.. ويغنيها مغني غير محزون، وما قواعد الشعر والكتابة والموسيقى والرسم والتصوير إلا حدود يتقي بها المقلدون المحتذون الوقوع في الخطأ الفنيّ، أما الملهمون فما أغناهم برقة وجدانهم، ولطف حسهم، وصفاء نفوسهم، وسلامة طباعهم.. عن التمثل والاحتذاء.

كنا قد بلغنا العشرين من الشهر الكريم، ولم يصلني خطاب من رحيم ولم أجد سبيلا في الوصول إليه، وكنت أطمئن نفسي اليوم بعد اليوم، والليلة تنقضي لا أريد أن تعود مرة أخرى، كنت أخشى أن أنظر إلى القمر وهو في تمامه، ورحيم ليس هنا، فمنذ أكثر من عام ولا تمر ليلة اكتمال قمر هو غير موجود فيها.. يملأ الحياة بنوره ويكتنز من مشاعره، أو كأنه مؤنس الليل ووحشته وقفرته، جمعت

كل مقطوعاته الموسيقية وأرسلتها إلى شركات الإعلانات المهتمة وقابلوها بترحاب شديد وأخذوا منها الكثير ليضعوه في إعلاناتهم، كنت أُعدها مفاجأة لرحيم حين يأتي.. وأخذت الأرباح وضعتها في ظرف ينتظر قدومه، كانت سعادة أمه كبيرة حين رأت موسيقى ابنها في التلفاز، وانتشرت في الأسواق وعلى مواقع التواصل الاجتماعي، كانت تعد أيضا الأيام المتبقية تنتظر فيها ابنها البكري، ولم يتبق سوى خمسة أيام على العيد، علمنا وقتها أن رحيم لن يرسل شيئا ولا ننتظر منه شيئاً لأنه أزف الوقت وحانت العودة، ذهبت في هذه الأيام القليلة لطباعة دعوات حفل الزفاف المقرر له ثاني أيام العيد.. وتأكدت من حجز المركبة، والمأكولات التي ستقدم إلى الضيوف والمشروبات الغازية.. كنت أهتم بأن يكون الحفل على قدر عال من الجمال، ولم لا!.. وزعت كل الدعوات وطلبت من مروان أن يوزع على أصدقائه وأهله.. ودعوت كل من كان هنا. حتى القيادات السياسية ورؤساء الجرائد والكُتاب.. كلٌ كان ينتظر.

وجاء العيد وجاءت ليلته.. تجمعنا جميعنا إلا رحيم ننتظر قدومه.. لم ننم ليلتها وكانت أمي وأمه يجهزانني بأدواتهم البسيطة ويعطياني الوصايا السبع التي أعلمها وأحفظها.. وسهرنا حتى شقشق الفجر وتوالت صيحات الدعاء باسترجاء.. وجاءت تكبيرات العيد تزف قدومه لنا وننتظر.. لم يأت رحيم بعد.

كانت كلما ارتفعت التكبيرات عادت معها رحلتي الطفولية وليلة كيف كنا ننتظر العيد، من يأتي لنا بسرورنا وقتها؟ من!، من يأتي لنا ببهجة العيد ورواؤه الجياش في القلوب من؟!، عندما نحتضن ملابسنا الجديدة ونسهر على السرير ندعي النوم حتى لا نسمع صياح الوالدين، ونشتري الألعاب الجديدة نتسابق من يجمع عيدية أكثر من الآخر. من يأتي لنا بهذه الأيام..

قررنا النزول لأداء الصلاة في مسجد سيدنا الحسين.. بحي القاهرة القديمة،

وكانت أمي وأمه تتغامزان وأرى أنهما لا يجيدان ذلك.. أعلم الآن أنهما يحنان إلى أيام زفافهما.. ربما يتذكرانها الآن أو هي حاضرة في قلبيهما.

رأيت الأطفال يلعبون مرحين في ساحة المسجد، رأيت الناس بزي جديد.. رأيت أجانب يترجلون في شوارع القاهرة منبهرين وفي نظراتهم إعجاب وذهول لا يصدقون أنهم في القاهرة.. يحاولون فهم شعائرنا الدينية، رأيت الأمان في وجوه الكل، والسعادة عند البعض، ورأيت أيضًا حزنا في عيون أقلية لا أفهم معناه،

كنت أنظر كل دقيقة في هاتفي أتطلع ما إذا كان رحيم قد عاد ويحاول الاتصال.. ولكن دون جدوى.. اشتريت الجرائد ورأيتها لم تحمل لنا شيئا جديدا.. حتى كان صوت التلفاز عند محل العصائر يروي خبراً زعزع أركان كل من هو جالس هنا..

"تعرض فجر اليوم الكمين 14 إلى هجوم عنيف، على أيدي إرهابيين.. واستشهاد جميع أفراده".

وا مصيبتاه! وا لوعتاه!

سقطت الجريدة أرضاً ونظرت لأم رحيم فرأيتها لا تفهم شيئاً، اتصلت بمدير أمن القاهرة وكل الضباط الذين ربما أعرفهم أو لا أعرفهم لأتأكد من الخبر. ولكن كان أمر الله هو الغالب. كنت على أمل أن يكون رحيم قد غادر الكمين قبل الفجر.. حاولت الاتصال بهاتفه فربما قد استلمه من الأمانات ولكنه مغلق.. انتظرت وانتظرت.. كثيراً حتى جاء الظهر وانتصفت الشمس عمودية علينا في ساحة سيدنا الحسين، حتى دق الهاتف، كان مدير الأمن، قال: البقاء لله نحسبه من الشهداء ولا نزكي على الله أحداً.

وقفت من مقعدي وشعرت كأن الدنيا تدور وتلف حولي كالرحى، لا أستطيع الحركة ولا الكلام.. أرى النور يتضاءل حتى كان سواد غاشم، لم أفق إلا في المشفى

على صياح ونواح.. كانت أمه تشهق بمرارة وكانت أمي لا تتحدث وفقدت النطق تماماً ولكنهما الاثنتان تتعانقان وتعولان وتنتحبان وتجري دموعهما على خديهما، وما من معز يفثأ لوعتهما.

نعم، مات ولم يبق لي أن أراه، وبعد قليل ينحلُّ في قبره ويعود إلى التراب الذي أخذ منه.

حولي زملائي في العمل وجاء طبيب يحمل لي كيسا بلاستيكياً ذا لون أسود.. قال لي أعتقد أن هذا يخصك.. فتحته فوجدت رسالة رحيم.

لم يكن يجب أن أفتح الظرف، لم يكن هذا التوقيت المناسب لفعل ذلك، لم أكن موفقة ولا مهيأة لأن أرى الخاتم الذي أهديته إياه ملطخا بدمه.. ولا رسالته الأخيرة تلك التي كتبها ولم تصل.. لم يكن سهلاً كل هذا.

ما كنت أبكي شيئاً قدر بكائي على هذا المسكين الذي عاش شقيا ومات مسكينا؛ وحال أمه من بعده.. ما فكرت في نفسي قدر تفكيري بهما وكيف يكونا من بعده، لم يبتسم لهم الدهر يوماً ابتسامة واحدة يكافئهم بها.

وأنا.. كأنما كُتب علي أن أعيش في هذه الحياة عيشة الأشجار العظيمة في الصحراء القاحلة المحرقة، تظلل الناس بظلها الوافر وهي تتصدع من حر الهاجرة وأوارها.

ورأيت كل من حولي صامت لا يتحدث، فربما شعروا بما يحدث في نفسي من زفرات تعتلج بصدري، لماذا يا الله.. فأنا لم أغضبك يوماً. لماذا أشقيتني!

مرت بداخلي كل أشكال التعاسة والهموم، فلم يتبق لي هم أحمله.. حملت كل همّ، لم أكن أعرف إذا كنت أنا حية في ثيابي ميتة فيما وراءها.. أم ميتة في ثيابي وحية فيما بعدها، لقد جفت عيناي ومات البكاء فيهما، ولكني وجدتني أبكي بلساني كلمات كالدمع، أتكلم لغة كالبكاء.. أتلفظ معاني هي في جملتها أوصاف

للتعاسة والهموم، عشت حياتي بقوة لا تهيبني أي حادثة ولا تهزني فاجعة.. والآن؛ الآن أصبحت أخاف الحياة وأخاف الموت.. كنت لا أكترث لما هو قادم ولا ماذا سيحدث في غدي، لا يفزعني الموت.. والآن أنا أخشى الموت وأتعذب بالحياة.. لم يكن ذلك من باب الغنى ولا المناصب، ولكن من باب الحرص على الحياة.. الحياة التي كنت أتطلع إليها ليست هذه الحياة، أنقلب في آخر حياتي وبعد وفاة والدي إلى خوفٍ من الموت، ولا يزال ينمو حتى كاد يخلع القلب من رقعة الإيمان التي تلهمه الصبر وتقويه، والآن نما أكثر حتى بلغ بي أنني أصبحت أخاف من الحياة نفسها..

الحرص على الحياة قد صار خوفاً من الموت، ورجع الخوف من الموت مع ذلك البلاء خوفاً من الحياة.

حاولت أن أنهض من مكاني وأجلس لأستعد لقراءة الخطاب فالتف حولي كل من حولي.. وساعدوني على ذلك، وبدأت القراءة:

***

عزيزتي الجميلة المخلصة ريم:

وصلني خطابك الأخير وشعرت بكل كلمة فيه تأتيني كالسهم في صدري لا أقوى أن أرده ولا أقوى أن أخرجه منه فبقيت كل السهام عالقة بي تثبتني مكاني وتوقفني حيث لا أستطيع النهوض ولا الحركة.

ما أصعب حبيبتي فراق الأحبة وما أشقانا من بعدهم.. إننا لا نبكي عليهم لثقتنا أنهم في مكان أفضل، وإنما نبكي على حالنا من بعدهم وكيف عصفت بنا الحياة.. نريد أحيانا أن نحتضنهم ونبلغهم عن عقبات لا نستطيع أن نتخطاها بدونهم.. نخبرهم بأن الحياة أصبحت كئيبة، مرة، ليس بها ما يبهج ولا يسر، نخبرهم أننا نفتقدهم ونفتقد كل شيء فيهم.

ولكني حزنت عندما علمت أنك تائهة وهذا ما لا كنت أرضاه أبداً، إنك يا ريم أقوى من ذلك بكثير.. إنك أقوى مني، تستطيعين يا شقيقة نفسي أن تكوني كالجبل الراسخ في الكون المتحرك لا يميل لا يكل لا يهتز، فسلاماً عليك حين تعبثي وحين أفقتي وحين تكوني وأينما تكوني.

ثلاثون قمراً مروا يا ريم ولم أركِ، ثلاثون ليلة الآن مرت لم تكوني معي في أي منها.. ما أصعب تلك الليالي ووحشتها.. كنت أستأنس القمر في ليلي الدامس وأحدثه، وما علمت حديث القمر إلا بعد أن وضع الحب بينك وبين قلبي.. وكنت أراه قبل أن أحبك فأنظر إليه نظرات لا تحمل أي فكرة، ولا خالجة، ولا يهز فيّ شعرة.. ولكني الآن أدرك أنه هو الذي يضيء مكانك.. نفس القمر الذي يراكِ هو أيضاً يضيء هنا ويراني.

طمئني يا قمر على ريم، قل لها يا قمر كيف أنا من دونها، أنت يا قمر ملء الوجود وملء الحب، فأملأ قلبها سلاماً وحبا.. املأه نوراً ودفئا.

إنها أيام قليلة، بعض الساعات الآن يا روحي القريبة، وأكون جوارِكِ ولا أريد من هذه الدنيا إلا أن أكون جوارِكِ، أقبلك وأعانقك.. ولا أفارقك.

فلتعش روحك بسلام وأمان.

والسلام ختام.

رحيم.

الإهداء:

إلى شهداء كمين البطل ١٤، كنتم خير السند.. وفزتم بجنة الخلد.. نحسبكم شهداء ولا نزكي على الله أحدا.

ضياء الدين الهمامي

إهداء خاص:

إليك نور.. دائمًا تطوفي في سمائي وتمنحيني النور.

info@noonpublishing.net

02-338560372- 01127772007